حول التوفيق بين إجابتين

نشرت لنا مجلة الإسلام الغراء صورة إجابة قلنا فيها - بناء على الأحاديث الواردة في ذلك - إن الله جلت قدرته قد اختص نبينا محمداً ﷺ بخصائص كثيرة: منها خلق نوره قبل الأشياء كلها من محض فيضه عز وجل بلا واسطة مادة من المواد ولا سبب من الأسباب، ومنها تشريف روحه الطاهرة بشرف النبوة في عالم الأرواح، وتقديم أخذ الميثاق له على النبيين: ليؤمنن به ولينصرنه. ومنها أنه لولاه ما خلق الله آدم عليه السلام ولا غيره من المخلوقات...إلخ.

وكان ذلك بناء على سؤال ورد إلينا من أستاذ فاضل مدرس بإحدى المدارس.

ومنذ بضعة أيام ورد إلينا من حضرة الأستاذ الأديب والباحث الفاضل محيي الدين سعيد البغدادي خطاب أشار فيه إلى هذه الإجابة، وإلى أنه قد سبق لحضرته إجابة نشرت بالمجلة نحا فيها إلى عدم الموافقة على أن الأشياء خلقت لأجله ﷺ، وأنه لولاه ما خلقت الدنيا ولا الجنة ولا النار. ثم ذكر حضرته أن بعض قراء المجلة الذين اطلعوا على إجابتنا آنفة الذكر، قد أرسلوا له خطاباً يرجون فيه إعادة الكلام في هذا الموضوع، وأنه لاشتغاله بتأليف كتاب يلتمس منا كتابة كلمة أخرى في الموضوع نوفق بها بين إجابتنا وإجابته. وقبل أن نحاول هذا التوفيق الذي يرومه الأستاذ البغدادي نحب أن ننبه على الأمور الآتية، وإن لزم على ذلك شيء من التكرار مع ما قلناه آنفًا:

(١) نحن نعتقد اعتقاداً جازمًا صريحًا أن سيدنا محمد ﷺ عبد مربوب، وحادث مخلوق، لوجوده ابتداء، ولحياته انتهاء، يجري عليه من الأعراض البشرية كل ما يجري على النوع البشري سوى ما يخل بحكمة بعثته، وشرف نبوته، كالعاهات المشوهة والأمراض المنفرة، وكالمعاصي على اختلاف درجاتها كبائر كانت أم صغائر حسب ما هو معروف في علم الكلام.

(٢) وأنه ﷺ لا يملك بذاته لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشوراً ؛ إذ لا شيء من كمالاته وكراماته ﷺ الحسية والمعنوية بذاتي له، وإنما هي كلها منح وعطايا اختصه بها من يختص برحمته من يشاء وهو الحكيم العليم .

(٣) وحينئذ فنحن لم نقل بأن نوره ﷺ أول المخلوقات، وأن الأشياء كلها خلقت من نوره، وأنه لولاه ما خلق الله تعالى الكائنات إلا تبعًا للأدلة الواردة في ذلك وهي كثيرة، وقد أوردنا معظمها في إجابتنا السابقة، مع أنا لا نرى أن عظيم فضله وشرف قدره يتوقف على كل ذلك.

(٤) ولا يمكن أن يخطر على بال أحد منا أن نوره ﷺ أزلي الوجود، أو أن له تأثيراً في شيء ما، كيف ونحن ننادي بأعلى صوتنا بأنه (أول المخلوقات) وكيف يكون المخلوق أزلي الوجود؟ وإنما الذي نفهمه من خلق الأشياء من نوره ﷺ الوارد في حديث جابر وغيره هو أن الله تعالى قد جعل هذا النور سببًا في وجود الكائنات وحياة الموجودات، فهو على حد قوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ (الأنبياء: ٣٠) ، وعلى حد قوله ﷺ فيما رواه الإمام أحمد من حديث أبي

هريرة رضي الله عنه : «كل شيء خلق من الماء» فنوره ﷺ سبب فقط. ومعنى ذلك أن الله تعالى قد جعله مدداً وساقيًا لجميع الكائنات، وليس المراد أن الكائنات أخذت منه حقيقة كما قد يتوهم. وحاصل الأمر أن الله تعالى خلق النور المحمدي أولاً وجعل فيه خاصية السقي والإمداد لغيره، ثم خلق بعده حقائق الأشياء: الماء، والعرش، والقلم، واللوح...إلخ، فصار هذا النور الشريف بمقتضى خاصيته المذكورة يشرق على هذه الحقائق كما تشرق الشمس على ما عداها من سائر الكواكب فتكسبها البهاء والنور، وإن شئت قلت يسقيها بمدده وسره كما يسقي الماء الزرع فيورثه النمو. وإلى هذا يشير قول سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه في صلاته المسماة بصلاة النور الذاتي: «اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد النور الذاتي والسر السَّاري في سائر الأسماء والصفات»[1]، وفي معناه قول العارف البكري في ورد السحر: «وصلِّ وسلِّم وبارك على عين الأعيان، والسبب في وجود كل إنسان».

(٥) وأما ما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي صححه الحاكم من أنه لولا محمد ما خلق آدم ولا خلقت الجنة والنار، فهذا يحتمل عندنا وجهين: الأول: إن المراد لولا نور محمد ﷺ ما خلق آدم ولا غيره من الكائنات على ما سبق تقريره، كما تقول: لولا الماء ما وجد النبات، ونحو ذلك. والوجه الثاني: أن يكون المراد أن الكائنات خلقت لأجل محمد ﷺ، وإكرامًا لذاته الشريفة، وهذا هو الأنسب والأظهر والله أعلم.

---

(١) المراد الأسماء والصفات المختصة بالحوادث.

(٦) فإن قال قائل: ما حقيقة هذا النور المحمدي الذي تثبتونه وتقولون إنه أول المخلوقات والسبب في وجود الكائنات؟ قلنا: نصَّ بعض المحققين على أن حقيقة هذا النور غير مدركة لعقولنا، فعلينا أن نثبته تبعًا للأحاديث الواردة به، وليس علينا أن نفهم حقيقته لقصور عقولنا عن ذلك، وليس هو بأول شيء قصرت عنه عقولنا ولم يمكنا معرفة كنهه وإدراك حقيقته، فهذه أرواحنا التي في أبداننا والتي لا نشك قط في وجودها، لا نعرفها ولا ندرك كنهها؛ لأنها مما استأثر الله تعالى بعلمه، قال عز من قائل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

(٧) فإن قيل: كيف يعقل أن يكون النور المحمدي أول المخلوقات كلها مع ما هو معلوم بالضرورة من تأخر وجوده ﷺ عن سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟ قلنا: كما عقلت وجود روحك قبل وجود جسمك؛ بل قبل وجود جميع الأجسام، لما ثبت أن الله خلق الأرواح قبل الأجسام، فاعقل وجود النور المحمدي قبل وجود جثمانه الشريف. وأيضًا قد ثبت أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى أخذ الميثاق من ظهر آدم- أي: من ذرية آدم الذين استخرجهم من صلبه بدليل ما بعده- بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنشرها بين يديه كالذر» الحديث، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، فإذا كنت مصدقًا بعالم الذر هذا- ولابد لك من التصديق به- وبه يلزمك التصديق بأن لكل واحد من بني آدم وجودًا آخر

سابقًا على وجوده الجثماني، فما بالك لا تصدق بأن لسيدنا محمد ﷺ وجوداً نورانيًّا غير وجوده الجثماني المعهود؟

والخلاصة أنه يؤخذ من مجموع الأحاديث والآثار الواردة عن النبي ﷺ والسلف الصالح أن لكل واحد منا وجودات ثلاثة: وجوداً روحانيًّا، وهذا حين خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجسام، ووجوداً في عالم الذر وهو غير الوجود الروحي؛ لأن الأرواح ثمت كانت في صور وأشكال يعلمها خالقها جل وعلا ، كما يؤخذ التصريح باسم الذرية في الآية والحديث، والوجود الثالث هو الوجود الجثماني المعهود. هذا بالنسبة لغيره ﷺ، وأما هو فإنه يمتاز بوجود رابع[1] وهو وجود نوره الشريف قبل الأشياء كلها.

هذا، وأما التوفيق بين ما قلناه في هذا الموضوع، وبين ما أجاب به حضرة الأستاذ الفاضل محيي الدين البغدادي، فلا نخفي أننا ظننا في بادئ الأمر غير ممكن؛ لأن التنافي بين الإجابتين ظاهر؛ إذ هما على طرفي نقيض كما يقولون. ولكن الله تعالى تفضل علينا بمنه وكرمه فألهمنا أن الأستاذ محيي الدين - وهو الرجل الفاضل والباحث المصنف - يغتبط بأن تكون له أسوة بمثل الإمام الشافعي رضي الله عنه حيث كان يبحث في المسألة ويبدي فيها رأيه، ثم يقول بعد ذلك: هذا رأيي، وإذا صح الحديث بغيره فهو مذهبي. وعلى هذه الأساس فنحن إذًا والأستاذ محيي الدين على أتم

---

(١) لا ينافي هذا ما قلناه في إجابتنا السابقة من أن له ﷺ وجودين؛ لأننا هناك قد نظرنا لوجوده النوراني ووجوده الظاهري الخارجي فقط، ولم ننظر لوجوده الروحي ووجوده في عالم الذر.

وفاق في هذا الموضوع، حيث قد صحت الأحاديث الكثيرة - لا حديث واحد - الدالة على خلاف ما ذهب إليه حضرته، وقد ذكرنا معظم نصوصها في إجابتنا المذكورة، وقلنا: إنه لا يضرنا عدم ذكر أسانيدها مادام العلماء المحدثون والأولياء العارفون قد اعتمدوها وارتضوها وأوردوها في مصنفاتهم التي سارت بها الركبان، وشاعت في جميع البلدان، ولا ريب في أن الأستاذ محيي الدين يشاطرنا في ذلك ويرى مثلنا أن عدم الوثوق بما يذهب إليه أمثال البيهقي والحاكم وابن عساكر والسيوطي والقسطلاني والقاضي عياض والشيخ محمد الزرقاني وغيرهم من الأئمة الأعلام ليس من الإنصاف في شيء.

وبعد فنتقدم لحضرة الأستاذ البغدادي بعظيم تقديرنا وجزيل شكرنا لثقته بنا، وحسن ظنه فينا ونسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياه لما يحبه ويرضاه قولاً وعملاً واعتقادًا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***

تقدير حقيقة وإزالة شبهة

ورد إلينا من حضرة الفاضل المحترم صاحب التوقيع كتاب لطيف بدأه بمقدمة مسهبة أثنى فيها على الفقير وعلى ما تنشره مجلة (الإسلام) الغراء ثناء طيبًا - لست له بأهل - وقال: إنه كتبه بين عشرين من أصدقائه، وقد رأوا في بعض المقالات المنشورة بالمجلة لأحد أفاضل الكتاب العبارة الآتية: (إن الإنسان مخلوق على صورة خالقه) مع أننا جميعًا نعلم ونؤمن بأن الله عز وجل منزه عن كل صفات الحوادث، وليس كمثله شيء، فرجاؤنا شرح ذلك بأسلوبكم القيم حتى لا تتحول عقيدة الضعفاء من المسلمين، ولكم من الله الأجر ومنا جزيل الشكر. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الجـــــواب

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وورثته إلى يوم الدين (وبعد) فأصل هذه العبارة حديث شريف عن النبي عليه الصلاة والسلام، ولفظه على ما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا، ثم قال له: اذهب فسلِّم على أولئك الملائكة فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق

ينقص حتى الآن» وفي رواية لغير البخاري: «خلق آدم على صورة الرحمن».

أما رواية البخاري فقد تأولها بعض العلماء على أن الضمير في «صورته» راجع إلى سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام كالضمير في قوله: «طوله ستون»...إلخ، وعود الضمائر إلى شيء واحد أولى من التشتيت فيها، والمعنى على هذا أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورته وهيئته التي كان عليها، لم ينتقل في النشأة أحوالاً، ولا تردد في الأرحام أطواراً كما هو الشأن في ذريته، بل خلقه كاملاً سويًا من أول الأمر. لكن نوزض هذا التأويل بالرواية الأخرى وهي[1] رواية «خلق آدم على صورة الرحمن» فإن الأحاديث يفسر بعضها بعضًا، وقد قالوا: خير ما فسرته بالوارد، قلت: ويعارض هذا التأويل أيضًا ما ثبت من تنقل آدم عليه الصلاة والسلام في الأطوار، كما يفيده حديث الترمذي والنسائي والبزار وصححه ابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «إن الله خلق آدم من تراب فجعله طينًا، ثم تركه حتى إذا كان حمأً مسنونًا خلقه وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار كان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقت لأمر عظيم، ثم نفخ الله فيه روحه، وكان أول ما جرى فيه الروح بصره وخياشيمه فعطس فقال: الحمد لله، فقال الله: يرحمك ربك».. الحديث. فهذا تصريح بأنه عليه السلام تنقل في الأطوار من تراب إلى طين إلى

---

(١) هذه الرواية كما تعارض هذا التفسير تعارض غيره من التفسيرات المبنية على إعادة الضمير لسيدنا آدم عليه السلام، كالقول بأنه للرد على الدهرية الزاعمين أنه لم يكن إنسان إلا من نطفة .اهـ

حمأ مسنون إلى صلصال إلى جسم حي متحرك قد نفخت فيه الروح، فالمناسب إعادة الضمير إلى الله تعالى والحمل على رواية: «خلق آدم على صورة الرحمن» وهو حديث متشابه، وللعلماء في أمثاله من النصوص المتشابهة الواردة في الكتاب والسنّة طريقتان.

موقف العلماء بإزاء النصوص المتشابهة:

فالسلف الصالح وفيهم أئمة المذاهب الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين مع اعتقادهم أن الله تعالى منزه عن جميع صفات الحوادث فليست له جهة ولا كيف ولا مادة ولا صورة ولا شكل على ما تتخيله العقول وتتصوره الأوهام - يمسكون عن الخوض في هذه المتشابهات، ويفوضون علم المراد منها إلى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، إيثاراً للطريق الأسلم، ومبالغة في البعد عن مظان الخطأ في التأويل.

وأما الخلف فإنهم يؤولون هذه النصوص، ويعينون لها محامل صحيحة تدل عليها القرائن، وتقرها الاستعمالات العربية، إبطالاً لمذهب الضالين وإرشاداً للقاصرين، وذهاباً منهم إلى أن الوقف في الآية الكريمة الواردة في ذلك: وهي قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾ (آل عمران: ٧) على قوله: ﴿والراسخون في العلم﴾ وأن قوله بعد ذلك: ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ كلام مستأنف لبيان حال الراسخين في العلم. أي: يقول هؤلاء الراسخون في العلم: آمنا بالمتشابه، وصدقنا بأنه حق له محامل صحيحة، ومعان مطابقة ﴿كل﴾ من المحكم وهو بين الدلالة، والمتشابه الذي خفيت دلالته فلم يعلمها كثير من الناس منزل ﴿من عند ربنا﴾

ومذهب السلف أن الوقف في الآية على قوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ أي: وما يعلم تأويله الحق المراد منه إلا الله تعالى وحده. ثم يبتدئون بقوله: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به﴾...إلخ. وعلى هذا فالمتشابه هو ما استأثر الله تعالى بعلمه، وعلى رأي الخلف، المتشابه هو المحتمل الذي يتوقف فهمه على ممارسة القواعد ورسوخ في العلم. قال بعض المحققين: وارتكاب أحدهما - يعني طريق السلف والخلف - كاف. والشخص مخير في اتباع أيهما شاء؛ لأنهما متفقان على تنزيهه تعالى عن المعنى المحال، وعلى الإيمان بأنه من عند الله جاء به رسول الله، لكن اختلفوا في تعيين معنى صحيح وعدم تعيينه.

والظاهر الذي تطمئن إليه النفوس أن العلماء - غير النبي ﷺ - مهما أوتوا من العلم والرسوخ فإنه لا يمكنهم علم تأويل المتشابهات، والوقوف على معانيها كلها. وإنما يفتح الله تعالى على من شاء بما شاء على قدر مقامه، واتساع حدقة بصيرته. وليس الأمر كما يظنه البعض من أن الوقوف على معنى المتشابه يكفي فيه ممارسة اللغة، والتضلع من علمي المنقول والمعقول. كلا؛ بل لابد مع ذلك من مجاهدة النفس وتخليتها من العوائق الصارفة عن فهم آيات الله تعالى التي أهمها الكبر. كما قال عز وجل: ﴿سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق﴾ (الأعراف: ١٤٦) نعوذ بالله من ذلك.

المتشابه وحكمة وروده في الشرع:

ورب قائل يقول: إذا كان ظاهر المتشابه غير مراد قطعًا؛ لأنه مستحيل على الله تعالى باتفاق السلف والخلف، فما حكمة وروده في

الشرع؟ وهلا كانت النصوص كلها محكمة بينة الدلالة واضحة المقصود؟ ولماذا ترك النبي ﷺ المتشابه من غير بيان؟ وجوابه: إن العلماء قد ذكروا لورود المتشابه جملة حكم منها:

(١) الابتلاء والامتحان ليتميز الثابت على الحق من المتزلزل فيه.

(٢) الحض على الفحص والتأمل، وقد قدح زناد الفكر حتى تتربى عند الإنسان ملكة النظر والاستدلال.

(٣) ما يترتب على كد القريحة فيه، وإتعاب الفكر في استخراج معانيه، على القول بإمكان تأويله من الدرجات العلى والثواب العظيم.

ولقد حضنا النبي ﷺ على طلب العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في المسائل والاستنباط من النصوص بعد أن نهانا عن التهجم عليها والتسور على حرمتها، والقول فيها بمجرد الهوى والرأي. كل ذلك ليحفزنا إلى التفحص والتأمل، ويدعونا إلى التفكير والعمل على رد المتشابه إلى المحكم، من مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص). وقد ثبت عنه ﷺ الترغيب في تلاوة هذه السورة، وأنها تعدل ثلث القرآن، وما ذاك إلا لنحفظها ونتفهم معناها، ونعتقد مضمونها من إثبات الوحدانية لله تعالى، ونفي الولد والوالد عنه تعالى، ونفي المكافئ والشبيه، وذلك يستلزم بالطبع نفي المادة والصورة والهيئة وجميع صفات الحوادث. وقد أخبر عز وجل بأنه أنزل الكتاب منه المحكم الواضح المحفوظ من الاحتمال والاشتباه وهو الكثير الغالب كما دل عليه الاستقراء، ومنه المتشابه وهو النادر القليل، وجعل المحكم أصلاً للمتشابه، وأمرنا برده إليه وعرضه عليه، صوناً للعقول من الضلال والزيغ، فأين المحذور الذي يخشى منه بعد ذلك؟

ومن المعلوم بالضرورة أنه ﷺ لم يفارق الحياة الدنيا حتى بشّره مولاه بكمال دينه وإتمام نعمته، وحفظ شريعته من التغيير والتبديل، قال تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ (المائدة: ٣)، وقال عز وجل: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٣) وقد أطلعه مولاه على أحوال أمته، وأنهم سيكون فيهم علماء راسخون، ومرشدون ربانيون يرثون هديه ويحرسون شرعه، يشرحون كلامه ويبينون مرامه، ذوداً عن الدين، وصوناً لحمى اليقين، حتى أخبر صلوات الله وسلامه عليه قبل انتقاله للرفيق الأعلى بأن أمته لا تجتمع على الضلالة، وأنه لا يخاف عليهم الشرك من بعده، ولا تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة ويأتي أمر الله تعالى، وبين أنهم ورثته ومستودع سره ومعارفه (العلماء ورثة الأنبياء) فكما أنزل عليه الذكر ليبينه للناس ويشرحه لهم، كذلك العلماء يبينون سنته ويشرحون كلامه، وقد ميزوا بين المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفصل، وفرقوا بين الحقيقة والكناية والمجاز، وكانت لهم في مناضلة البدع وهدم الشبهات وتقرير الحقائق الشرعية مواقف حاسمة وأياد بيضاء سلفًا وخلفًا. ولله در البوصيري حيث يقول:

لم نخف بعدك الضلال وفينا ... وارثو هديك العلماء

ولما وضعت الزنادقة الأحاديث الموضوعة بقصد الكيد للدين، وتشويه محاسنه، وقيل لعبد الله بن المبارك: هذه الأحاديث الموضوعة، قال: يعيش لها الجهابذة، يعني أهل العلم ونُقَّاد الحديث، فهم أمناء شرعه وورثة سره حتى قال الإمام الجليل أبو إسحاق الشاطبي في كتاب «الموافقات»: ما من

مزية أعطيها رسول الله ﷺ - سوى ما وقع استثناؤه - إلا وقد أعطيت أمته منها أنموذجًا. وإنما قال: أنموذجًا؛ لأن نفس مزاياه ﷺ - حتى ما لم يقع استثناؤه كالنبوة والوحي وما يتصل بهما سواء العلمية أو العملية، الظاهرية أو الباطنية، الحالية أو المقالية - لا يمكن أن يصل إليها مخلوق سواه، وإنما يعطى الأولياء والعلماء بطريق الوراثة نماذج منها فقط. وكأنه عليه الصلاة والسلام لما علم أن حظ المتأخرين من علماء أمته في نصرة الدين بالسنان والسيف نادر ومفقود، أبقى لهم حظ المدافعة عنه باللسان والقلم، فما رفعت شبهة رأسها، ولا أشكلت آية أو حديث إلا تصدى لها واحد منها بأدلة ساطعة، وبراهين قاطعة، تقمع الضلالة وتنسخ ظلمات الجهالة، ومن ذلك هذا الحديث الذي نحن بصدده وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله خلق آدم على صورته» والرواية الثانية: «خلق آدم على صورة الرحمن» فمن أراد أن يذهب فيه مذهب السلف، فليؤمن به وليفوض معناه إلى الله تعالى ورسوله ﷺ مع تنزيه الحق جل شأنه عن الصورة والشكل والمثال وغيرها من صفات المخلوقين. وأما من أراد الجري على طريقة الخلف إرضاء لشهوة عقله وإشباعًا لغريزة حب الاستطلاع فيه، فها نحن أولاء نذكر له طائفة من التأويلات والتفسيرات المناسبة للمقام أخذًا من كلامهم تصريحًا تارة وتلويحًا تارة أخرى.

(١) إن المعنى أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام على صورته أي: على صفته بأن أعطاه نموذجًا من صفاته في الجملة، كالحياة والعلم والإرادة والسمع...إلخ. وإن كان في الحقيقة لا مناسبة بين الحادث والقديم، وإنما ذلك من باب التمثيل والتقريب، كما يقال للمثال المرسوم على الخريطة مثلاً، إنه صورة إفريقيا أو أوربا، وقد يستأنس لهذا التأويل بما ثبت في صحيح

البخاري عن النبي ﷺ عن رب العزة أنه يقول: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به»... الحديث ؛ إذ يمكن أن يكون المعنى: فإذا أحببته أعدته لحالته القبلية، وصفاته الأصلية، التي هي نماذج من صفاتي، ونعوت ذاتي فكأنني صرت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به. فالإنسان باعتبار حقيقته الروحية نوراني لطيف عالم دارك سميع بصير، لا تحجبه الجمادات، ولا تبعد عنه المسافات، وإنما طرأت عليه الكثافة والجهل والبعد عن الله تعالى باقتحام المخالفات، وميل النفس إلى الشهوات، فإذا لحظته العناية الإلهية واستطاع أن يحارب شهوته ويجاهد نفسه وهواه أمكنه التخلص من ظلمة ماديته وسجن بشريته، الرجوع إلى حالته الأصلية، ونشأته القبلية:

فم تزل كل نفوس الأحيا ... علامة دراكة للأشيا
وإنما تعوقها الأبدان ... والأنفس النزغ والشيطان

(٢) إن الله تعالى خلقه على صورة وهيئة - أي: باعتبار روحه - لا يمكن معرفتها، وإدراك كنهها، كما أن ذات الحق جل وعلا كذلك. فكما أنه تعالى منزه عن الحس لا تدركه الأبصار، ولا تحيط به العقول، ولا تعرف له كيفية ولا أينية، كذلك حقيقة الإنسان وروحه اللطيفة مع كونها موجودة قطعًا، فهي لا تحس ولا تدرك، وهناك تأويلات أخر، وإلى هنا أردنا أن نكتفي بما أوردناه في هذا الموضوع.

وهذا القدر في التحقيق كاف ... فكف النفس عن طلب المزيد

هدانا الله تعالى إلى الصراط المستقيم، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه سميع الدعاء.

الحج وحكمة مشروعيته

الحج إلى بيت الله الحرام ببلده الأمين مكة المكرمة أحد أركان الإسلام المهمة وقواعده الأساسية، فرضه الله تعالى على كل مكلف مستطيع كما قال عز شأنه: ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ (آل عمران: ٩٧) . وفسر العلماء الاستطاعة بأنها عبارة عن صحة البدن، وأمن الطريق، ووجود المال المبلغ ذهابًا إلى مكة المكرمة، وإيابًا إلى أقرب مكان يمكنه أن يعيش فيه، حتى قال بعض العلماء: من قدر على الذهاب ولو بأن يؤاجر نفسه وجب عليه الحج، فلما قيل له في ذلك قال: أرأيت لو كان لأحدهم ميراث بمكة أما كان ينطلق إليه ولو حبوًا؟ فكذلك يجب عليه الحج، فالحج إذن شريعة لازمة وفريضة مؤكدة، ودين في عنق القادر عليه لا يبرأ منه إلا بأدائه صحيحًا، ووفائه كاملاً غير منقوص. وقد كتبه الله تعالى مرة واحدة في العمر كله رحمة بعباده وتخفيفًا عليهم، فالقعود عنه عند القدرة عليه مع هذا التخفيف كفران بنعمة الله تعالى، وتعرض للمقت ممن يعلم السر وأخفى. ويمتاز الحج عن بقية أركان الإسلام بأن الله تعالى جعله موكولاً لضمائر العباد متروكًا لشعورهم، لا دخل فيه لسلطة الحكام، كما هو الشأن في الصلاة والزكاة مثلاً؛ لأن وقته العمر، ولأن أعذاره كثيرة لما يلزمه من السفر ومفارقة الأهل والوطن، والحاجة إلى الصحة والمال. ورب شخص لا عذر له في

الظاهر يكون معذوراً في الباطن، فتاركه لا يجبر عليه، ولا يتعرض له إلا على سبيل التذكير والأمر بالمعروف فقط.

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه وتعالى الحكمة في مشروعية الحج بقوله: ﴿ جعل اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ ﴾(المائدة: ٩٧) ، أي: انتعاشًا لهم ونظامًا لشأنهم، وصلاحًا لأمر دينهم ودنياهم. ففي الحج تجريد للنفس عن الحظوظ الكاذبة، وتخلية لها من شوائب الكبر والاغترار بمظاهر الحياة الدنيا التي لا تبقى ولا تدوم، وفي الحج تقوية للإيمان، وصقل لجوهر الروح وتغذية للشعور الديني بمشاهدة البيت الحرام وتذكرة عهد النبوة والوحي، ومتى صفت الروح وقوي الإيمان صدرت عن الجوارح جميع الآثار الطيبة والأعمال النافعة للفرد والمجموع .

والحج فرصة طيبة للتعارف والتآلف وتوثيق أواصر المحبة والمودة بين الأمم الإسلامية، وهو سبيل ممهد لتبادل المنافع المختلفة وتنشيط حركة التجارة والعمل، وإغداق الخير العميم على سكان تلك البقاع المقدسة، وهم جيرة الحرم الشريف وحراس البيت المعظم، وإخواننا في اللغة والدين. ومن كلام الغزالي في الإحياء بصدد الحديث عن موقف عرفة: ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب، فإذا اجتمعت هممهم، وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم، وارتفعت إلى الله سبحانه وتعالى أيديهم، وامتدت إليه أعناقهم، وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة، فلا تظنن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم، ويدخر عنهم رحمة تغمرهم. ولذلك قيل: إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن

وقيل المراد: ﴿وأنت حلٌّ بهذا البلد﴾ أي: وأنت منتهك الحرمة مستحل الدم به. يستبيحون أذاك ويرمونك بأنواع المكاره. ويحثون التراب على رأسك الشريف، ويجعلون الدم على بابك، مع كونهم يتحرجون عن التعرض لصيده وقطع شجره، ولا ينتهكون فيه حتى حرمة القاتل عمداً، وفي هذا من التوبيخ والتقريع لأولئك الأشرار ما يقطع نياط القلوب، حيث يحافظون على حرمة الصيد في هذا البلد الأمين، فلا يفزعونه ولا يتعرضون له بسوء، وهم ينتهكون حرمة أعظم مخلوق وأشرف كائن صلوات الله وسلامه عليه، وقد روي أن نفراً من أهل الكوفة سألوا عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن الحكم في دم البعوض فقال لهم: واعجباً لكم، تسألون عن دم البعوض، وقد أرقتم دم ابن بنت رسول الله ﷺ !!! .﴿ووالد وما ولد﴾ أي: وأقسم بوالد وهو آدم عليه الصلاة والسلام ، وما ولد وهم ذريته إلى يوم القيامة، والتعبير بما في قوله: ﴿وما ولد﴾ دون من؛ لأن المراد الوصف العجيب. أي: وأقسم بذلك الوالد العظيم الذي تعرفون أمره وقصته، حيث خلقته بيدي وأكرمته بتعليم الأسماء كلها، وأمرت ملائكتي بالسجود له سجود تحية وتعظيم لا سجود عبادة، وبالمولودات العجيبة التي ولدها وتفرعت عنه مباشرة أو بالواسطة، وهم النوع الإنساني بأسره مجمع العجائب ومحل الغرائب في خلقه وتصويره وتسوية أعضائه، وشق سمعه وبصره، ونفخ الروح فيه، وتميزه بالعقل المفكر، وإلهامه النطق والتدبير، والإحاطة بالمعلومات الكثيرة وغير ذلك مما يعلمه خالقه ومبدعه الحكيم، والمقسم عليه هو قوله تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان﴾ أي: الجنس كله على اختلاف أشكاله وطبقاته بما فيهم الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام

﴿ في كبد ﴾ أي: في تعب ومشقة أحاطت به إحاطة الظرف بالمظروف منذ أن كان جنينًا في ظلمة الرحم إلى أن يستقر به القرار في الجنة يوم القيامة ويسمع النداء من قبل الحق تعالى: «يا أهل الجنة خلود بلا موت» هذا إذا كان من أهل الجنة، أما إن كان من أهل النار فكبَده ما له غاية، وشقاؤه ليس له نهاية، فالإنسان ما لم يستقر به القرار في دار الكرامة والتنعيم فهو ليس بآمن من المشقة والكبد. ومن هنا قول الصديق الأكبر ﷺ وعنا به: لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمي في الجنة. وبيان ذلك أنه وهو جنين في بطن أمه يكابد ظلمة الرحم والأحشاء، ويعاني شدة في كيفية جلوسه واستقراره في هذا المضيق، ثم إذا حان وقت الخروج تغير وضعه فصار أسفله أعلاه وأعلاه أسفله، ولقي شدة في بروزه من الموضع المعلوم. وبعد ذلك يكابد قطع السرة وعناء الارتضاع، وأذى الحر والقر وتقلبات الأجواء واختلافات الطقوس وأمه لا تدري ما تتطلبه راحته في كل وقت، وكثيراً ما يبكي لمغص في جوفه أو برغوث يقرصه وهي تجهل حقيقة ما به فتلقمه ثديها ظنًا منها أنه يبكي من الجوع وبالعكس. وهو لا يستطيع الإفصاح عن حاله والتعبير عما في نفسه. وقد تضيق عليه القماط فيتعب ويتألم أو يستيقظ وهي نائمة فيسقط من فوق السرير وهي لا تشعر به، وقد تضربه بيدها أو رجلها وهي نائمة فترض جسمه وتؤذيه. ثم إذا نبتت أسنانه كابد منها شدة، ثم يكابد الفطام، وهو أشد ما يكون عليه، ثم يكابد الحبو والمشي على الحائط تارة ومستقلاً أخرى، وربما سقط لفيه فشجت جبهته أو تعفر وجهه بالتراب، ثم يكابد اللعب مع الأطفال خارج البيت ويلقى الكثير من وكزهم وضربهم، ثم يكابد الختان وما فيه من الآلام والأوجاع، حتى إذا

شب وترعرع كابد المدرسة والتعليم وتحمل عناء المذاكرة والتحصيل، وتعرض للمشاق والأخطار في الذهاب والإياب، ثم يهتم بأمر المستقبل ومغامرة الحياة، وتتوق نفسه إلى الزواج فيكابد الاشتغال باختيار الزوجة والصهر، والقيام بأعباء النفقة والمهر وغير ذلك من التكاليف الباهظة. وقد كان قبل ذلك يحمل همّ نفسه فقط، فأصبح يحمل همه وهم رفيقته التي قد لا يعرف الكثير من أحوالها وأخلاقها، وعمًّا قليل يحمل شغل الأولاد وسياستهم والقيام بنفقاتهم وتعليمهم. ثم يكابد الشيخوخة والكبر وما يلازمهما من الأوجاع والأسقام. زد على ذلك كله مكابدته للتكاليف الإلهية وتحمله للأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، ثم ينزل به الموت فيكابد سكراته وغمراته، وليته إذا مات استراح؛ بل يعاني سؤال الملكين وضغطة القبر وظلمته ووحشته، ثم يخاف البعث والنشور وأهوال الموقف والعرض على الله تعالى ومناقشته الحساب والمرور على الصراط، واجتياز عقباته ومخاطره، وهو لا يدري مصيره وما الله صانع به، أيؤمر به إلى جنة يدوم نعيمها أم إلى نار يدوم عذابها؟ وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه لما آلت إليه الخلافة جمع نساءه وجواريه وخيّرهن بين تسريحهنّ والبقاء معه من غير أن يقربهن، وقال لهن: لقد نزل بي أمر لا أفرغ من الاشتغال به حتى يفرغ الناس من الحساب، وأعرف مصيري يوم القيامة، فبان أن قولهم: من مات فقد استراح: معناه: إنه استراح من مصائب الدنيا فقط، وأما شدائد الآخرة فلا يستريح منها حقيقة إلا بدخول الجنة. نسأل الله تعالى أن يدخلنا إياها من غير سابقة عذاب.

هذا ومـــا خلق الله تعالى الإنسان في ذلك الكَبَد إلا ليخفف من غلوائه ويقل من غرب كبريائه حتى لا يطغى ولا يشمخ بأنفه ويتكبر على ربه ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (العلق: ٦،٧) فخلقه في كبد إنما هو ليشهد ذله وضعفه وافتقاره إلى مولاه، ويديم القرع لباب سيده، ويكثر من التضرع والدعاء الذي هو مخ العبادة ولباب التقوى.

على أن كثيراً من الناس - مع هذا الكبد الملازم- قد اغتروا بما خولهم الله تعالى من القوى المحدودة والأموال المستعارة، فراحوا يتمردون عليه، ويجحدون نعمته، ويصرفونها لا فيما خلقت لأجله من طاعته وامتثال أمره، بل في عداوة نبيه ﷺ وإطفاء نوره ومناوأة دعوته، وحسبوا أن ما بأيديهم من ذلك إنما أوتوه على علم عندهم واستولوا عليه بدواتهم لأنهم تخيلوا الإمهال- أي: تأخير العقوبة إلى الأجل المسمى في علم الله تعالى- إهمالاً، وتوهموا الحلم عنهم رضًا بما يصدر منهم، فأصروا على العناد والتكذيب، واستمروا على المناوأة والمعاكسة، والله من ورائهم محيط، كما قال عز شأنه: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ﴾ هو رجل من قريش يقال له: أبو الأشد كان ذا قوة ومال، وكان شديد الاغترار بقوته، مسرفًا في عداوة الرسول ﷺ. روي أنه كان يجعل الأديم العكاظي - أي: الجلد المتين - تحت قدميه، ويقول: من أزالني عنه فله كذا. فيجذبه عشرة حتى يتمزق ولا تزول قدماه. وقيل: هو الوليد بن المغيرة. وقيل: أبوجهل. وعلى كلٍّ فالمراد كل متصف بهذا الوصف الذميم؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. والمعنى: أيحسب الإنسان الظالم، المتمرد على ربه، والمغتر بقوته وماله ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أي: على أخذه ومعاقبته، وسلب ما عنده من القوة والمال ﴿أَحَدٌ﴾ مع أن الله تعالى

محيط به، وعالم بأعماله السيئة وأحواله القبيحة، وهو قادر على أن يبدل قوته ضعفًا وصحته مرضًا، وغناه فقراً، وعزه ذلاً وإهانة، وإنما أخر العقوبة عنه لما اقتضته حكمته من الإمهال، إلزامًا له بالحجة، ومضاعفة للتبعات عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٢، ١٨٣).

﴿ يَقُولُ ﴾ ذلك الظالم الجحود مفتخراً بالباطل ومتمدحًا بالقبيح، وهو صرف المال في المحرمات كما يقع لكثير من المجرمين في هذا الزمن الذين يهلكون أنفسهم وأموالهم في شهود الملاهي وشرب الخمور وتعاطي المخدرات، أو يتبرعون بها في بعض المشاريع الخيرية لكن لا رغبة في الخير ولا ابتغاء لمرضاة الله تعالى؛ بل بقصد الشهرة وحب الظهور، بدليل أنهم يؤثرون ذلك على بعض الواجبات الضرورية، كمساعدة المحتاجين من أقاربهم وجيرانهم ﴿ يَقُولُ ﴾ هذا المجرم الشقي ﴿ أَهْلَكْتُ ﴾ أي: صرفت وأنفقت في سبيل عداوة محمد ﷺ وعداوة الحق، وإنما عبر بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث، وإشعاراً بأنه لم ينفق ما أنفق رجاء لنفع أو انتظاراً لمثوبة ﴿ مَالًا لُّبَدًا ﴾ أي: مالاً كثيراً متراكمًا بعضه على بعض ﴿ أَيَحْسَبُ ﴾ حين يقول ذلك ويتبجح به ﴿ أَن لَّمْ يَرَهُ ﴾ ويطلع على أحواله، ويعلم مقدار ما أنفقه، والباعث الذي بعثه على الإنفاق ﴿ أَحَدٌ ﴾ والله تعالى عالم بذلك كله، وسوف يسأله عنه ويحاسبه عليه، كما جاء في الحديث عنه ﷺ : أنه «لا تزول قدما العبد يوم القيامة حتى يسأل عن: عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟».

ثم لما ذكر الله تعالى فيما سبق أنه خلق الإنسان في كَبَد، وقضى عليه بالتكليف وجعل الدنيا ميدانًا، وكتب عليه فيها المشقة والجهاد، أراد أن يبين -جلَّ ذِكْره- أنه ما فعل ذلك إلا وقد هيأ الإنسان لهذه المهمة، ومكنه منها، وجعل فيه استعدادًا كافيًا للقيام بأعبائها، فخلق له الوسائل والآلات من العين والأذن واللسان والعقل الذي يمكنه من فهم الخطاب، وتعقل الأمر والنهي، والتمييز بين النافع والضار، وهداه بواسطة الإلهام الفطري، وعلى أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام طريقي الخير والشر، ونصب له على كل منهما علامة واضحة تميزه عن الآخر، فجعل طريق الجنة وهو طريق الخير محفوفًا بما تكرهه النفوس وتنفر منه، وجعل طريق النار وهو طريق الشر محفوفًا بما تستلذه النفوس وتشتهيه. كما قال ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات» فالحياة ميدان. والمكلف باعتبار عقله وروحه كالغازي المجاهد، وبدنه فرسه الذي يقاتل عليه، وجوارحه وحواسه بمثابة الأسلحة والذخائر، فلا ينبغي للعاقل الطالب لأسنى المطالب بعد ذلك أن يتكاسل ويتخاذل؛ إذ لا حجة بعد الرسل ولا عذر بعد البيان، وخلق الاستعداد الكافي، فقال: ﴿ألم نجعل له عينين﴾ أي: قد جعلنا له عينين يبصر بهما آيات الله تعالى، ويتقي المكاره والأخطار ﴿ولسانا﴾ يدل به على ما في نفسه ويترجم به عن ضميره، أودع فيه قوة الذوق وجعله أداة للتخاطب والتفاهم ﴿وشفتين﴾ ستر بهما الفم وزينه بهما، وجعلهما عونًا على النطق والأكل والشرب وغير ذلك ﴿وهديناه النجدين﴾ أي: لم نكله إلى عقله؛ بل أرسلنا له الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنزلنا له الكتب، وبينا له طريقي الخير والشر، وعلمناه كيفية العمل، ورسمنا له خطة

الجهاد، فقد كان ﷺ يقول: «خذوا عني مناسككم» ، «صلوا كما رأيتموني أصلي»، ولكن الإنسان تقاعد وتخاذل، وأحجم عن الجهاد، واستسلم لعوامل الشهوة والهوى، حتى احتل الشيطان مدينة بدنه وسيطر عليها سيطرة كلية، فسخر الجوارح والأعضاء في المعاصي والفجور، واستعملها في غير ما خلقت له من طاعة الله تعالى وشكره، فالعين التي كانت لا تنظر إلا المصحف ونحوه كالنظر في آيات الله تعالى الكونية، أو النظر في الطريق الحسي الموصل إلى المسجد أو البيت، أصبحت لا تنظر إلا في المحرمات كالنظر إلى المرأة الأجنبية أو الغلام الأمرد بشهوة، والأذن التي لم تكن تسمع إلا المواعظ والذكر وقراءة القرآن، صارت تستعمل في سماع الملاهي وآلات الطرب وسماع الكلام القبيح من الغيبة والنميمة، وهكذا سائر الجوارح والأعضاء، ولهذا يقول تعالى: ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ أي: خلقنا فيه الاستعداد، وكلفناه بالجهاد، ورسمنا له الخطة، ولكنه ما قام بما كلف به، ولا جاهد نفسه وهواه، ولا حافظ على ثغور بدنه؛ بل تركها عرضة للعدو الواقف بالمرصاد، المنتظر غفلة الحراس والجند. وأصل العقبة الطريق الصعب في الجبل، استعير لمجاهدة النفس بفعل الطاعات وترك المنهيات؛ لأن هذا هو الجهاد الأكبر الذي هو أصعب من جهاد الكفار بالحديد والنار، لأن ذاك جهاد في عدو ظاهر تراه كما يراك فتقدم إن رأيت المصلحة في الإقدام، وتحجم إن قضت المصلحة بذلك، وتستعد له بما يناسب استعداده، وهذا جهاد في عدو باطن يراك ولا تراه ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ (الأعراف: ٢٧)، ثم نوه الله تعالى بشأن هذه العقبة التي طلب من الخلق اجتيازها واقتحامها، وزاد أمرها تفخيمًا وتعظيمًا، فقال: ﴿ وما أدراك ﴾ أيها المخاطب ﴿ ما العقبة ﴾

أي: ما أعلمك بكنهها وحقيقتها، ثم فسرها بأهم ما فيها وهو الإعتاق والإطعام في وقت المسغبة على حد قوله ﷺ: «الحج عرفة». يعني أهم أركان الحج وأعظم مقاصده الوقوف بعرفة. فقال: العقبة هي ﴿فك رقبة﴾...إلخ. يعني ليس اجتياز العقبة المذكورة كلمة تلوكها الألسنة ويدعيها المدعون كما هو دأب البطالين أنصار الهزيمة والخذلان الذين:

رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم
وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلوا
فهم في السرى لم يبرحوا عن مكانهم
وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا
وعن مذهبي لما استحبوا العمى على الـ
هدى حسداً من عند أنفسهم ضلوا

وإنما هو ذبح تنفس بسيف المجاهدة والمكابدة. وله أمارات تدل عليه: منها فك الرقبة، أي: تخليصها وتحريرها من ربقة الرق ابتغاء مرضاة الله، وقد ندب الشارع إلى إعتاق الرقاب، ورغب فيه ترغيباً كثيراً. والأولى والله أعلم أن يراد من فك الرقبة هنا ما هو أعم من العتق ونحوه كإغاثة الملهوفين، ومساعدة المضطرين، وتفريج كرب المكروبين والتيسير على المعسرين بأي نوع من أنواع المساعدة والمعونة ﴿أو﴾ العقبة المراد اقتحامها ﴿إطعام﴾ يعطيه العبد ﴿في يوم ذي مسغبة﴾ أي: ذي مجاعة وشدة لقلة القوت وكثرة المحتاجين إليه ﴿يتيما ذا مقربة﴾ أي: قريبًا للمعطي في النسب أو في الدار ﴿أو مسكينا ذا متربة﴾ أي: التصاق بالتراب لشدة فقره واحتياجه. وإنما كان فك الرقبة وإطعام

القريب والمسكين في يوم المسغبة هي العقبة الكئود التي لا يجتازها إلا القليل من الصادقين؛ لأن بذل المال في ذاته شديد شاق؛ إذ هو شقيق الروح، وبذله في وقت المسغبة أشق وأصعب.

ليس العطاء من الفضول سماحة

حتى تجود وما لديك قليل

والوجه في تخصيص اليتيم ذي المقربة والمسكين ذي المتربة بالذكر هنا: إنَّ النفس غالبًا لا تسخو بالبذل على الأقارب لما يكون في أكثرهم من الحقد على قريبهم الغني، وعدم اعترافهم له بالجميل، واعتبارهم جميع ما يقدمه إليهم حقًّا واجبًا لهم في ماله لمكان قرابتهم منه، فلا تنطلق ألسنتهم بالثناء عليه ولا يبالغون في احترامه وتعظيمه كما هو شأن الأباعد. ولهذا ترى كثيراً من الناس المتظاهرين بالصدقة والإحسان يترك الواحد منهم قريبه أو جاره الملاصق له يتضور جوعًا ويذوب حسرة وألما، مع علمه بذلك وإحساسه به فلا يرق له ولا ينفس كربته بقليل مما عنده، بينما هو ينفق الكثير الوفير على المتسكعين في الشوارع والطرقات أو المعتكفين بأضرحة المشايخ مع أن كثيراً من هؤلاء قد لا يستحق الصدقة، ومنهم من تجب عليه زكاة المال. فمساعدة اليتيم القريب أعظم محك يتميز به المخلص من المرائي خصوصًا إذا وقعت في السر ولم يطلع عليها الناس، وكذلك إطعام المسكين ذي المتربة؛ لأن معرفة من هذا حاله تحتاج إلى كثرة بحث وتحرٍ مع قوة فراسة وفطنة؛ إذ هو في الغالب قليل السؤال يندر أن يتعرض إلى الناس ويفضي إليهم بحاجته، فقد تنبو عنه الأنظار ويحسبه الجاهل غنيًا من التعفف، وغالب الناس يحب المحمدة والثناء، مولع بالصدقة على من يتعرض له ويلتف حوله ويصيح خلفه بالألفاظ التي اعتادها السؤال في هذا الموقف.

ولما كان الإيمان هو أساس الصالحات كلها والشرط الذي لابد منه في جميع الأعمال، بيَّن الحق تعالى ذلك، فقال: ﴿ ثُمَّ كَانَ ﴾ هذا المقتحم للعقبة، المتصف بالصفات المذكورة قبل ذلك ﴿ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بالله تعالى ووثقوا بوعده ووعيده، وعظموا أمره ونهيه، أما غير المؤمن فعمله مردود عليه ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (الفرقان:٢٣) ﴿ وَتَوَاصَوْا ﴾ أي: بعد أن تحققوا بالإيمان والتصديق بالبعث والجزاء على الأعمال، واطمأنوا إلى وعد الله تعالى ووعيده، أوصى كل منهم نفسه وغيره ﴿ بِالصَّبْرِ ﴾ على أداء الطاعات، التي منها؛ بل من أهمها وأفضلها فك الرقاب وإطعام الطعام كما قال ﷺ وقد سئل: «أي الإسلام خير؟» قال: «تطعم الطعام، وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»، وعلى ترك المحرمات، وتحمل البليات. وفي الحقيقة من لم يوص نفسه بالصبر لم تثمر وصيته به في غيره، كمن يأمر بالصلاة وهو لا يأتمر بها، وينهى عن شرب الخمر ولا ينتهي عنه، ولله در القائل:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى ... طبيب يداوي الناس وهو عليل

والوصية بالصبر تكون ببيان ثمراته ونتائجه في العاجلة والآجلة، وذكر الآيات والأحاديث الواردة في ذلك كقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ (السجدة: ٢٤) وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٥-١٥٧) فجمع للصابرين بين الهدى والرحمة والصلوات. وفي الإحياء: قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين

موضعًا، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له. ومعناه: حبس النفس على ما تكره. وهو متفاضل ومتفاوت بحسب ما يترتب عليه من النتائج والثمرات. وعن عمر بن الخطاب ﷺ: وجدنا خير عيشنا الصبر، وهو كما قال: فإن من لم يدرع بدرع الصبر الحصين رشقته سهام الفتن من كل جانب. وقد عده القوم من أهم أركان الطريق، وجعلوه مناط الفلاح والنجاح ﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ أي: الرحمة بجميع الكائنات الناطقة وغيرها، وتدخل نفس الإنسان دخولاً أوليًا. وفي الحديث: «من لا يرحم لا يُرحم». أي: من لا يرحم المخلوق ولو كان كافراً بأن يتعهده بالموعظة والنصح والتعليم والتغاضي عن هفواته، أو بهيمة ملكًا له أو لغيره بأن يتعهدها بالإطعام والسقي والتخفيف في الحمل وترك التعدي بالضرب وغيره، لا يرحمه الله تعالى في الآخرة. وقد نهى الشارع عن تعذيب الحيوان، فلا يجوز حبس الطعام والشراب عنه، ولا ضربه لغير مصلحة، وإن جاز ذبحه لأكل لحمه مثلاً. وكثير من الناس يتصنع بإظهار الشفقة والرحمة بغيره والواقع أنه من أشد القساة؛ لأنه عرض نفسه وأهله لمقت الله تعالى وغضبه، فلم يمتثل له أمرًا، ولم يجتنب له نهيًا ﴿أولئك﴾ المتصفون بالصفات المذكورة من الإيمان بالله تعالى والتواصي بالصبر والمرحمة، المجاهدون في الله تعالى حق جهاده، ففكوا الرقاب وأطعموا الطعام، وألانوا الكلام، وأحسنوا المعاملة مع الخالق والمخلوق ﴿أصحاب الميمنة﴾ أصحاب اليمين والسعادة والبركة على أنفسهم وغيرهم، إذ هم شموس الهداية، ورحمة العباد والبلاد، يحيي الله تعالى بهم القلوب الميتة كما يحيي الأرض بوابل المطر، ويدفع بسببهم أنواع المحن والبلايا في الحياة

الدنيا وفي الآخرة، وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، ويكونون في جهة اليمين تحت ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله. ثم ذكر القرآن الكريم كعادته مقابل هذه الطائفة بقوله: ﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ الكونية والتنزيلية بأن جحدوها وشكوا في صحتها، ولم يتدبروا فيها ولم يهتدوا بهدايتها، ومروا عليها وهم عنها معرضون، لا يصدقون بشيء، ولا يرغبون في وعد ولا يرهبون من وعيد ﴿هم أصحاب المشأمة﴾ أي: أصحاب الشقاوة والشؤم في الدنيا والآخرة، وهم الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم يوم القيامة، أعاذنا الله من ذلك. والتعبير بقوله تعالى: أصحاب المشأمة هنا وأصحاب الميمنة فيما سبق للإشعار بالملازمة والدوام، فالذين آمنوا وتواصوا بالصبر والمرحمة ملازمون للبركة واليمن والهناء والنعيم المقيم، والتمتع بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر. والذين كفروا ملازمون للشؤم والشقاء والهم والنكد ﴿عليهم نار﴾ يسجنون فيها، لا يخرجون منها، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولا يصدر لهم عفو ولا تنفعهم شفاعة الشافعين؛ بل هي: ﴿مؤصدة﴾ أي: مطبقة ومقفلة عليهم لقطع أطماعهم في الخروج وتشديد العذاب عليهم، كلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ويتجرعوا مرارة العقاب، جزاء لما كانوا عليه في الدنيا من الصلف والتكبر عن الحق والاعتزاز بالباطل، يسمعون داعي الله تعالى فلا يجيبون، ويمر عذاب الآخرة وذكرها على أسماعهم فيسخرون ويهزءون، ويهزون رءوسهم جحداً وتكذيباً، ويقولون: متى هو؟ قل: عسى أن يكون قريباً. نسأل الله تعالى التوفيق والهداية لأقوم طريق.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

صدق الله العظيم

سورة العصر

اتفق العلماء على التنويه بشأن هذه السورة الكريمة والحث على تدبرها وتفهم معانيها حتى قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : «لو لم ينزل غير هذه السورة لكفت الناس» وذلك لأنها مع قصرها وصغر حجمها قد اشتملت على علوم القرآن كله إجمالاً، وأشارت إلى أساسي السعادة الدينية والدنيوية معًا. وقد أخرج الطبراني والبيهقي عن أبي حذيفة أن الرجلين من أصحاب رسول الله ﷺ كانا إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ ، ثم يسلم أحدهما على الآخر. هي وسورة الكوثر أقصر سور القرآن. وعند ابن عباس والزبير والجمهور أنها مكية، وقال قتادة ومجاهد ومقاتل: إنها مدنية. وروي هذا عن ابن عباس أيضًا. واختلفوا في بيان المراد من «العصر» الذي أقسم الله سبحانه وتعالى به هنا. فقال ابن عباس: هو الدهر. ووجهه أن الدهر هو المشتمل

على الحوادث والعبر، فهو مظهر التقديرات الإلهية، والتدبيرات الربانية، والتجليات الجلالية والجمالية، كما يشير إليه الحديث الصحيح: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر» أي: مصرفه ومدبره. ففي الدهر الحياة والموت، والظلمة والنور، والحرارة والبرودة، فيه البسط والقبض، والرفع والخفض، والغنى والفقر، والصحة والسقم، فيه السراء والضراء، والشدة والرخاء، والراحة والعناء. فلا عجب أن يقسم الله سبحانه وتعالى به ليوجه إليه نظر الباحثين وفكر المعتبرين فإن جميع هذه المذكورات وسواها من مظاهر قدرته وعجائب صنعه تعالى، آيات شاهدة بربوبيته ودلائل ناطقة بوحدانيته، لمن تأمل في عبرتها ولم يقف عند ظاهرها.

تأمل سطور الكائنات فإنها　　　من الملأ الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت سطرها　　　ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وقيل: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ هو ما بعد الزوال إلى الغروب، وإليه ذهب قتادة. أقسم الله تعالى به تذكرة للغافل الراكض في ميدان الحظوظ والشهوات ليتأمل في نهاية أمره. ويفكر في زوال شمس حياته، وطي صحيفة أعماله، وارتحاله عن هذه الدار الفانية، إلى دار الخلود والبقاء فيعد عدته، ويجهز أهبته، ويأخذ من صحته لمرضه، ومن غناه لفقره ومن حياته لموته. وقال مقاتل: بل المراد صلاة العصر. ووجهه أن الله سبحانه وتعالى أقسم بها كما أقسم بالفجر في قوله عز وجل: ﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ (الفجر: ١، ٢) ؛ لأنهما الصلاتان اللتان تجتمع الملائكة فيهما كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون». ولأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى عند الجمهور لقوله عليه الصلاة والسلام: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر». وفي مصحف عائشة وحفصة ﭬ : «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى صلاة العصر» وثبت في الحديث الصحيح : «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» وقيل: «العصر» هو عصره وزمانه ﷺ . أقسم الله تعالى به، كما أقسم بمكانه في قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ (البلد: ١،٢) والبلد: مكة. وبحياته في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢) تنبيهاً على أن عصره ﷺ أفضل العصور لما تشرف به من إشراق شمس نبوته، وإنزال القرآن المجيد، وتشريع أحكام ملته الكفيلة بسعادة البشر دنيا وأخرى.

هذه جملة الاحتمالات في كلمة «العصر» هنا، وهي وإن كانت كلها في دائرة الصحة والإمكان، لكن يظهر - والله أعلم بحقيقة الحال- أن أعدلها وأقربها كون المراد صلاة العصر، لما سبق من التوجيه؛ لأن إطلاق العصر على الدهر كله أو على ما بعد الزوال إلى الغروب غير الكثير الشائع على لسان العرب؛ بل الأكثر إطلاق اسم العشي على ما بعد الزوال. وكذلك لو كان المراد عصر النبوة الحنيف لكان الأنسب في التعبير أن يقال مثلاً: «وعصرك إن الإنسان» كما قال عز شأنه في آية أخرى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾ (النساء: ٦٥).

ثم الظاهر المناسب في مثل هذا القسم جعل المقسم به هو المذكور نفسه من العصر، والفجر، والضحى، والليل...إلخ ليكون في الإقسام بهذه المذكورات إيذان بفضلها، وحث على التأمل في عجائبها والوقوف على حكمة مشروعيتها، وأما تقديره ورب العصر مثلاً مع كونه خلاف الظاهر يكاد يذهب برونق هذا التعبير البديع ويقلل من بهاء حسنه، والحكمة في إيثاره والله أعلم.

قال تعالى: ﴿ والعصر ۞ إن الإنسان ﴾ الأولى أن نحمل اللام في الإنسان هنا على أفراد هذا الجنس لتظهر فائدة الاستثناء الآتي، وليكون إعلامًا بأن الشأن في هذا الجنس والكثير الغالب فيه إنما هو الغفلة والضلال والظلم لنفسه ولغيره، والتعرض للخسران المبين كما قال تعالى: ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ (الأحزاب: ٧٢)، ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (يوسف: ١٠٣). ﴿ لفي خسر ﴾ أي: خسران عظيم، لصرف أعمارهم وإضاعة أوقاتهم سدى، وتسخير عقولهم ومواهبهم في قضاء مآربهم الخسيسة، وشهواتهم الدنيئة، ولغفلتهم عن الاستعداد ليوم الميعاد.

روي أن بعض الملاحدة قال للإمام علي ﷺ وكرم وجهه: ما لي أراك تجهد نفسك في العبادة هذا الإجهاد كله. أتعتقد حقًّا أن هناك يومًا آخر فيه جنة للطائعين ونار للعاصين؟ فأجابه الإمام ﷺ : إن كان الأمر كما تظن أنت من أنه لا حساب ولا ثواب ولا عقاب فقد نجونا معًا، وإن كان الأمر كما أعتقد فقد نجوت أنا وهلكت أنت. وهكذا ألقمه ﷺ حجراً كما هو شأنه في إفحام الخصوم.

ولما كان الإيمان هو أساس التزكية ورأس السعادة كلها؛ إذ لا يقبل عمل إلا به، ولا يتحقق ربح إلا بعد الحصول عليه، بدأ به القرآن الكريم فقال: ﴿إلا الذين آمنوا﴾ فإنهم يرجون تجارة لن تبور، تجارة رابحة، وصفقة ناجحة؛ لأن الله سبحانه وتعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والتمتع برؤية وجهه الكريم، فبذلوها بتسليم ورضاء من غير تلعثم ولا إباء، آمنوا بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقضاء خيره وشره حلوه ومره، إيمانًا صادقًا لا شبهة ولا تردد فيه. وهو أول الأمور الأربعة التي جعلها الله تعالى في هذه السورة مناط الفلاح والنجاح.

والإيمان على ضربين: إيمان ناشئ عن دليل وبرهان، وهو إيمان من يستدل بالأثر على المؤثر، ويعرف الصانع بصنعته، وإيمان شهود وعرفان وهو إيمان الخواص الذين استغنوا بأنوار المشاهدة والوصال عن معاناة الأقيسة والاستدلال الذين يقول قائلهم:

عجبت لمن يبغي عليك شهادة ... وأنت الذي أشهدته كل مشهد

وهؤلاء هم أهل التمكين والرسوخ في اليقين الذين دخلوا حضرة الإحسان، ولم تشغلهم حجب الأكوان، جلسوا على بساط الخصوصية وذاقوا لذة العبودية. وهم صنفان: صنف فطرهم الله تعالى على معرفته وحبه وخصصهم من الأزل بمزيد رضاه وقربه وهم الملائكة الأبرار والأنبياء الأطهار عليهم الصلاة والسلام.

وصنف وصلوا إلى ذلك بعد أن تطهروا من الرعونات البشرية والكدورات النفسانية، وهم أهل المجاهدة وأرباب الإرادة والسلوك.

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

﴿ وعملوا الصالحات ﴾ هذا هو الأمر الثاني من الأمور الأربعة المتقدمة. وهو ثمرة الإيمان والدليل على صدقه وصحته، وهو مع كونه كذلك في الواقع، فإن زيادة الإيمان موقوفة عليه ورسوخ أنوار المعرفة في القلب لا يكون إلا به، فإن من زين ظاهره بآداب الشريعة والعمل بأحكامها نور الله تعالى باطنه بأنوار المعرفة واليقين.

وفي قوله عز وجل: ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ إسناد العمل إلى المكلفين تقريراً لما هو الحق وعليه أهل السنة والجماعة من أن للعبد كسباً به كلف، وخوطب بالأمر والنهي، لا كما زعم الزنادقة الإباحيون المتشبهون بالصوفية وما هم منهم، الهادمون لسور الشريعة ظلماً وعدواناً، التاركون لأوامرها ونواهيها المقدسة، ينغمس الواحد منهم في حمأة التهاون والتقصير، ويغشى المنكرات باختياره وطواعيته، فإذا أردت أن ترده عن هذا الغي المبين، وتهديه إلى الصراط المستقيم بالوقوف عند حدود الشريعة والتزام أحكامها وآدابها، احتج عليك بما لا حجة فيه على ما يرومه كأنه يقول: ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ (الصافات: ٩٦) (الكل منه وإليه) كلمة حق يريدون بها الباطل، قاتلهم الله أنى يؤفكون. والواقع أن إبليس اللعين لما لم يقنع من هذه الفئة المارقة بارتكاب الفجور والفسوق، أراد أن يسد عليهم باب التوبة والندم، ويخرجهم عن حظيرة الدين بالكلية، فلقنهم هذه الشبهة الواهية كما لقنها لأسلافهم من قبل.

﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ (النحل: ٣٥).

وعمل الصالحات هو امتثال المأمورات الباطنة: كالصدق والإخلاص ومحبة الله تعالى ورسله والصالحين. والظاهرة: كالصوم والصلاة والزكاة والحج، واجتناب المنهيات كذلك، الباطنة: كالعجب والرياء والحسد والكبر. والظاهرة: كالزنا وشرب الخمر والسرقة والقتل وغير ذلك مما تكفلت ببيانه الشريعة الغراء.

﴿ وتواصوا بالحق ﴾ وهذا هو الأمر الثالث. وهو الذي يتم به نظام العمران وتستقيم شئون الحياة وتتوافر السعادة الدنيوية والأخروية.

ولهذا عقب الله تعالى به الإيمان وعمل الصالحات، إشارة إلى أنه النتيجة المباشرة لذلك. فإن الإنسان متى تم تهذيب نفسه وتقويم أخلاقه فقد تأهل لقيام الدعوة والإرشاد والإبصار بالحق والصبر، وكان جديراً بأن يقبل منه وتثمر نصائحه وإرشاداته. ومعنى التواصي بالحق: أن يوصي بعضهم بعضًا، ويوصي كل واحد نفسه أيضًا بالحق، أي: بكل ما هو حق وثابت شرعًا سواء كان دينيًّا أو دنيويًّا، متعلقًا بالخالق أو بالمخلوق. فإن المؤمن مطالب بإعطاء كل ذي حق حقه، ومأمور بألاَّ ينسى نصيبه من الدنيا التي هي في الحقيقة مطية الآخرة والجسر الذي يعبر عليه إليها.

والمذموم من الدنيا إنما هو تعلق القلب بها وانشغاله عن الله تعالى والدار الآخرة، لا ما يعين على ذلك منها، فإنه مطلوب بالتبع. وقد

أشارت الشريعة إلى تنوع هذه المطالب والحقوق وحضت المكلف على مراعاة جميعها من غير إفراط ولا تفريط. أخرج البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ آخى بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء وهي زوجة متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبوالدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له طعامًا فقال له: كُل فإني صائم. فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل. فلما كان، ذهب أبو الدرداء يقوم. فقال: نم الليل فنام، ثم ذهب ليقوم، فقال: نم. فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصليا. فقال له سلمان: إن لربك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فقال: «صدق سلمان».

فعلى النصاح والمرشدين أن يعملوا بهداية القرآن الكريم والسنة النبوية فيتواصوا بأنواع الحقوق كلها، ولا يوغلوا في واحد منها، ويغفلوا الباقي.

وفي ذكر التواصي هنا (بالحق) إشارة إلى أنه لابد من وجود طائفة من الوعاظ والمرشدين العارفين بأنواع الحقوق وقيمة كل منها، وما تستحقه من الوقت ليعطي المؤمن كل ذي حق حقه ﴿وتواصوا بالصبر﴾ أي: بالتزام الصبر بأقسامه الثلاثة: الصبر على ترك المعاصي وهو أشقها وأعظمها، ويشمل مجانبة العصاة والفرار من مواطن الفتن، والصبر على فعل الطاعات، ويشمل أداءها في أوقاتها المقدرة شرعًا، والمحافظة على شروطها وآدابها الظاهرة والباطنة، والصبر على تحمل البلايا الدنيوية سواء كانت متعلقة بالبدن أو بالمال أو بالأهل. وأما البلايا الدينية

فلا يطلب الصبر عليها؛ إذ هي عبارة عن المعاصي التي تجب التوبة منها والإقلاع عنها كما هو مقرر ومعلوم، وهذا هو رابع الأمور المذكورة.

وخص التواصي بالصبر مع دخوله في عموم التواصي بالحق إشارة إلى مزيد شرفه وعظيم فضله، وأن القيام بالحق المذكور على وجهه المطلوب الذي يقع به موقع الصحة والقبول لابد معه من الصبر، فإن الصبر كما قال ﷺ: «ضياء» متى لزمه الإنسان في حياته أدرك وجه الصواب في أعماله كلها، واستحق عليها التوبة والجزاء الأوفى وقد قالوا: الصبر عنوان الظفر.

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المتعجل الزلل

وقد تكلم الناس في حقيقة الصبر كثيراً، فقيل: هو حبس النفس على ما تكره. وأحسن من هذا ما قيل: إنه حبس النفس على ما يقتضيه الشرع والعقل. وقال ذو النون المصري: إنه التباعد عن المخالفات الشرعية، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى عند حلول الفقر بساحة المعيشة. والمعول عليه عند العارفين أن يكون الصبر ابتغاء مرضاة الله تعالى. ودونه الصبر طمعًا في المثوبة والأجر. وقد عثرت إحدى الصالحات مرة في إصبع قدمها فدميت فضحكت. فقيل لها في ذلك، فقالت: لذة ثوابه أنستني مرارة ألمه.

هذا ما أراد الله سبحانه وتعالى أن يجري به القلم في الكتابة على هذه السورة الكريمة، وبيان ما اشتملت عليه من الفوائد التي لا تحصى، والمعاني التي لا تستقصى. نسأل الله الهداية والرشاد.

***

تفسير
الأحاديث النبوية
وبعض موضوعات أخرى

في ذكرى النبي الكريم

كيف كانت حياته ﷺ مصدر الخير العام

عن ابن مسعود رضي الله عنه رفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم، تعرض عليَّ أعمالكم، فما كان من حسن حمدت الله عليه، وما كان من سيئ استغفرت لكم». (رواه البزار بسند جيد)

طلبت إلينا (مجلة الإسلام) الغراء بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف أن نوافيها بكلمة تتعلق بموضوع هذه الذكرى. فلم نر بدًّا من إجابة هذا الطلب تلبية لنداء الواجب، وتبركًا بخدمة صفوة الله تعالى وحبيبه. في هذا الوقت الذي نعتقد أن من أفضل الأعمال فيه بعد أداء الفرائض الحتمية الاشتغال بمدحه ﷺ، وإشاعة ذكره، والإشادة بمبادئه وأعماله، وما كان لحياته العظيمة من الآثار الباقية في تنظيم الجماعة البشرية وإصلاح الأمم والأفراد.

في مثل هذا الشهر المبارك، وفي مثل هذه الأيام السعيدة منذ تسعة وأربعمائة وألف عام تشرف هذا الوجود بإنسان عينه؛ وروح جسده، وسر حياته سيدنا ومولانا وولي نعمتنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وعترته أجمعين.

فقد ولد عليه الصلاة والسلام عام الفيل - صاحب القصة المشهورة - في ربيع الأول لاثنتي عشرة ليلة خلت منه على أشهر الأقوال، وكان ذلك قبيل الفجر على ظاهر أكثر الروايات، ولد ﷺ في ذلك

التاريخ، فكان مولده كـما كانت حياته كلها ومماته بعد ذلـك نعمة كاملة، ورحمة شامـلة، وخيراً عامًا، وآية لا تجحـد ولا تنكر، ولد في تلك البقاع القفراء والصحاري الجرداء، فكان لها سلسـبيلاً عذبًا ونميراً سائغًا، أمدها بالسعادات وأفاض عليـها من الخيرات والبركات حتى جـعلها قبلة الدنيا ومحط نظر العالم أجمع.

ولد هذا الرسول الكريم والنبي العظيم ﷺ في زمن بلغ فيه العرب الغاية من الانحطاط الخلقي والانـحراف الديني والانحلال الاجتـماعي؛ بل كان العالم كله في جهالات متراكـمة، وضلالات متلاطمة، وغوايات أتت على الأخـضر واليـابس من مكارم الأخـلاق ومحـاسن العادات. مـفاسـد شـائعة، وحـقـوق ضائـعة، وأرحـام مـقطوعة ومـودات ممنوعـة، وعكوف سخـيف على عبادة أوثان هي من صنـع أيديهم واختراع أوهامـهم، وطاعة عمـياء لأحكام الشهوات الجـامحة، والأغـراض الفاسدة، وقطيعـة تامة بين الأرض والسماء، فلا هاد يدعو، ولا مصغ يجيب.

في وسط هذا الجهل المطبق والضلال المطلق، انبثق فـجر الحياة المحمدية كما ينبثق الفجر الصادق فيكتسح الظلام، ويبدد الهواجس والأوهام.

ومازال ﷺ يشـــب ويترعرع ، وينمو ويكبر جـسمًا وعقلاً وروحًا، وكلما نما ازداد في نفـسه الطاهرة النقية بغض مـا كان عليه قومه مـن العقائد الفاسدة والعادات القبيحة، والأخـلاق المعوجة حتى آثر العزلة عنهم والابتعاد منهم، وحبب إليه الاختلاء، فكان يخلو بغار حراء الليالي ذوات العدد يناجي ربه ويتضرع إليـه، ويسأله أن يهديه إلى الوسيلة الناجعـة والطريقة المثلى التي ينقذ بهـا أولئك الجاهلين الغاوين من تلك الجهـالة الجهلاء والغواية العـمياء.

وهنالك سمع الله تعالى نداءه واستجاب دعاءه، وجاءه بالحق المبين ﴿ اقْرَأْ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقْرَأْ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (العلق: ١-٥).

هنالك أوحى الله تعالى إليه ما أوحى. وتتابعت عليه الفيوضات الربانية بالآيات البينة والحكم القيمة والتشريعات الصالحة المفيدة التي هدى بها من الضلالة وأرشد بها من الغي، وفتح بها آذانًا صُمًّا، وأعينًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، وأنقذ بها العالم من الوثنية والإباحية إلى التوحيد والإيمان الخالص، ومن الهمجية والوحشية إلى الحضارة الراقية والمدنية الصحيحة والعمران الوارف الظليل، كما قال صلوات الله عليه وسلامه : «حياتي خير لكم» الحديث، وهو الحديث الذي آثرنا أن نجعله موضوع كلمتنا اليوم.

ومن الجلي أن مثل هذا الحديث يقوله النبي ﷺ تقريرًا للواقع، وتعليمًا لأمته، وتحدثًا بمنة الله تعالى عليه. والمقصود بكاف الخطاب في قوله: (لكم) مجموع الأمة كلها، لا خصوص المشافهين بالخطاب، للقطع بأن حياته ومماته عليه الصلاة والسلام خير للجميع سواء الموجودون في زمن الخطاب وغيرهم، وهذا مما لا يحتمل خلافًا ولا يسع جدالاً، فهو البحر الخضم الذي منه الاغتراف للمشاهد والغائب، والحاضر والبادي، والقاصي والداني، كل على حسب استعداده، وقدر اجتهاده في متابعته، والتعلق به والتخلق بأخلاقه الفاضلة.

وكلهم من رسول الله ملتمس
غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم

وما لنا نضيق واسعًا، وخير هذه الحياة المباركة الميمونة عام للأشخاص والأزمنة والأمكنة في الدين والدنيا والآخرة، فهي

خير للإنسانية والعالم كله، قال تعالى: ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وكيف لا تكون كذلك وهي التي أحيت القلوب من موت الجهالة والكفر، وحررت العقول من ربقة الأوهام والخيالات، وهذبت النفوس بالعبادات الصحيحة والآداب الكريمة، وأحيت الأبدان بما أحلت لها من الطيبات، وحرمت عليها الخبائث ونفت عنها من الحرج في الدين، ووضعت عنها من الآصار والأغلال التي كانت على الأمم الماضية، وهي التي أسست قواعد العدل، وقررت مبادئ الحرية والمساواة، وكبحت جماح الشهوات، وحاربت الطغيان والظلم، ودعت إلى الرفق والتعاون والاتحاد ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف، وطهرت البشرية من أرجاسها، ونظمت الحياة الاجتماعية تنظيمًا لم يسبق له مثيل؟

وما أكرمنا الله تعالى به من الخصائص، وأغدق علينا من الخيرات الدينية والدنيوية بسببه وبواسطته ﷺ، بما شحنت به الدواوين وأفرده العلماء بالتأليف قديمًا وحديثًا، كرفع للعذاب العام والهلاك المستأصل، وكتضعيف الحسنات، والاجتباء في الدنيا والآخرة، وعدم اجتماعنا على الضلالة، وكون إجماعنا حجة في الدين، وكالتخفيف علينا في الطهارة بالماء إن وجد، وبالتراب عند فقده أو فقد القدرة على استعماله، والتيسير في العبادة، ووصول ثواب ما نهديه إلى أمواتنا من دعاء أو صدقة، وكذلك القراءة على الصحيح بخلاف الأمم السابقة في ذلك كله.

أضف إلى ذلك ما اختص به خواص أمته من المعارف والأحوال السنية، والكرامات الفائقة، والأسرار العديدة، فكل هذا من يده الشريفة

وأثر حياته المباركة. ومن آثار هذه الحياة الجليلة وخيراتها العامة ما تلقيناه عنه ﷺ عمليًّا من عظم المروءة وعلو الهمة، والشجاعة في الحق، وعدم الاكتراث بالباطل مهما كثر أنصاره، مع حسن السياسة وسعة الحلم وكمال الصبر، وتمام الثقة بالله تعالى والتفويض إليه في الأمور كلها، مع أخذ العدة وفعل الأسباب المشروعة وقوفًا مع الحكمة في وضعها، والأمر بها وترتيب المسببات عليها.

ولما كانت خيرية حياته ﷺ ظاهرة مفهومة، لم ينص على بيانها في هذه الرواية التي معنا وهي التي عزاها سيدي محمد الزرقاني في شرح المواهب للبزار وقال: إنها بسند جيد. ووقع في بعض الروايات زيادة الجملة الآتية وهي: «تحدثون ويحدث لكم» وهي تعليل لوجه الخيرية لمزيد الإيضاح. أي: تحدثون أعمالاً وتقع بينكم أشياء، ويحدث الله تعالى لكم أحكامًا لهذه الحوادث والأعمال تنفعكم وتنفع من يأتي بعدكم إلى يوم القيامة. كما وقع في قصة الإفك حينما رمى المنافقون السيدة عائشة رضي الله عنها زوجته ﷺ بالفاحشة فأنزل الله تعالى براءتها من السماء في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ (النور:١١) الآيات. وكما في قصة التي ظاهر منها زوجها، فسألت رسول الله ﷺ: إن زوجي قد ظاهر مني وقد طالت صحبتي معه وولدت له أولادًا. فقال عليه الصلاة والسلام: «قد حرمت عليه» فرفعت رأسها إلى السماء، وقالت: إلى الله أشكو حاجتي، ثم عادت إليه فأجابها كما قال أولاً، ثم ذهبت لتعيد الثالثة فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ (المجادلة: ١). وكما وقع في قصة هلال ابن أمية ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ (النور:٦) إلخ، وفي الصوم ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ

تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا﴾ (البقرة:١٨٧). ثم قال ﷺ: «ومماتي خير لكم» وخيرية مماته عليه الصلاة والسلام بالنسبة للأمة لما كانت غير ظاهرة ولا جلية بينها بقوله: «تعرض عليَّ أعمالكم» كلها، أي: يعرضها الله تعالى عليّ، ويطلعني عليها، وهل بواسطة أو بدون واسطة؟ والظاهر الأول. لما رواه الإمام أحمد وغيره وصححه الحاكم: إنه وكل بغيره ﷺ ملك يبلغه صلاة المصلين عليه. أما وقت العرض المذكور فقد بينه عبد الله بن المبارك بما رواه عن سعيد بن المسيب ﷺ قال: ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشية فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم. وقد بين عليه الصلاة والسلام الحكمة في هذا العرض بقوله: «فما كان» أي: ما صدر منكم وعرض عليّ من أعمالكم «من حسن» أي: من طاعة وخير وعمل صالح صدر عن إخلاص ونية وكان مطابقًا للشرع، وسمي حسنًا لحسن عاقبته وحسن نتائجه في المعاش والمعاد، في البدن وفي الروح «حمدت الله عليه»؛ لأنه هو الذي خلقه ويسره ووفق إليه، وما كنا لنتهدي لولا أن هدانا الله، فلله ما أجمل وما أحسن. حمدًا لله تعالى على الحسن؛ لأنه موجده وميسره وخالق القدرة عليه، بعد أن أضاف الأعمال إلى العباد في قوله: «أعمالكم» نظرًا لما لهم فيها من الكسب والاختيار، وردًّا على الملاحدة الإباحيين الذين يزعمون أن العبد مجبور على أعماله كلها لا اختيار له في شيء منها أصلاً، ذريعة إلى إسقاط التكليف ودفع اللوم عنهم إذا وقعوا في المخالفات. ومن العجيب نسبة هذه الضلالة إلى الصوفية وهم أشد الناس محافظة على الطاعة وابتعادًا عن المعصية. «وما كان من سيئ» مخالف للشرع كزيغ في العقيدة، وحدث في الدين، وإهمال في الواجب، وارتكاب لمحرم ظاهر

كالغيبة والزنا وشرب الخمر وأكل الربا، أو باطن كالرياء والكبر والحسد ونحو ذلك، وسمي سيئًا لسوء عاقبته في الدنيا والآخرة، ولا يخفى أن الحسن ما حسنه الشرع، والسيئ ما نهى عنه وحذر من ارتكابه، فلا عبرة بما تسوله النفوس الأمارة، وتستحسنه العقول المريضة، وتوحي به شياطين الأهواء والأغراض من أولئك المفتونين بالمدنيات الغربية والخلاعات الأوربية. نسأل الله تعالى أن يعافيهم ولا يبتلينا بما ابتلوا به حتى تدنست فطرهم وفسدت ملكاتهم، وأصبحوا يرون الحق باطلاً والباطل حقًا كالمحموم الذي يجد الحلو مرًا.

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرًا به الماء الزلالا

«استغفرت لكم» الله تعالى، أي: طلبت لكم منه المغفرة وعدم المؤاخذة على الذنوب، أو طلبت لكم من الله تعالى السلامة والحفظ منها، وهذا منه ﷺ تقرير للحقيقة وبيان للواقع، وأن مقامه مقام الداعي الشفيع فقط، والأمر بعد ذلك لله جل شأنه. وهنا لقائل أن يقول: هل عرض الأعمال عليه ﷺ عام حتى أعمال الكفار؟ وهل استغفاره ﷺ للمسيئين مجاب في الكل؟ وما كيفية العرض المذكور؟ وهل تتسع له القوى البشرية؟ والجواب عن هذه- والله أعلم بالحقيقة، فإننا لم نطلع على نص- أن الذي يعرض عليه ﷺ أعمال المؤمنين خاصة؛ لأن الكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ولا يفيدهم الاستغفار شيئًا ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ (النساء: ١١٦) فلا نتيجة لعرض أعمالهم، واستغفاره ﷺ للمسيئين من أهل الإيمان مجاب، لكن الإجابة على أنواع، منها: عدم المؤاخذة على الذنب في الدنيا مع المؤاخذة عليه في الآخرة، بمعنى تأجيل التنفيذ، ومنها عكس ذلك. ومنها: مجرد التخفيف في العقوبة، ومنها: عدم

المؤاخذة أو التخفيف في البعض دون البعض الآخر. ولا يبعد أن يقال: إنه ﷺ لا يطلب المغفرة من الله تعالى إلا لمن يطلعه الله تعالى على أن رفع العقوبة عنه معلق على استغفاره عليه الصلاة والسلام، بمعنى أن الله تعالى يلهمه ذلك صيانة لمقامه الشريف عن عدم إجابة طلبه. وعن سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه قال: إذا أراد الله تعالى إمضاء أمر أمسك ألسنة أحبابه لئلا يدعوا فلا يجابوا فيفتضحوا. على أن الاستغفار في ذاته عبادة ومقام الألوهية فوق كل شيء، وقد قيل له عليه الصلاة والسلام ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ (القصص: ٥٦) والسيد المطلق يفعل ما يشاء، ولا غضاضة على العبد مهما ارتفعت منزلته ألا يجاب مطلوبه. وبالجملة فليس لأهل الشهوات المسرفين على أنفسهم تكأة في مثل هذا الحديث الشريف؛ بل عليهم بدل أن يتخذوه دهليزاً لمعصية الله تعالى ورسوله ﷺ، أن يجتهدوا في تصفية بواطنهم وإتقان أعمالهم المعروضة على هذا النبي ﷺ، وأن يبالغوا في استشعار الخجل والحياء منه جهد استطاعتهم، ويحذروا من مخالفة أمره وانتهاك حرمة شرعه.

وأما كيفية العرض المذكور فقد سبق أنه بواسطة بعض الملائكة الموكلين بذلك، فالملك يكتب الأعمال ويحصيها ثم يعرضها عليه ﷺ جملة، فيميز كل عمل ويعرف صاحبه. ومثاله في الشاهد الرسوم والتماثيل التي تكون في الأوراق، فقد ترسم مدينة كبيرة على بطاقة مثل قاعدة الكف. وهذا من مسائل الغيب التي تؤخذ على التسليم، ولا ينبغي فيها كثرة البحث، ومعلوم أن للأرواح الكبيرة- فما بالك بروحه ﷺ- جولات ومشاهدات عالية، وقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي هذا». قال ذلك وهو على المنبر في إحدى مواقفه. وقدرة الله - عز وجل- صالحة، ويختص حبيبه بما شاء.

وقد يخطر لبعضهم أن يقول: كيف يكون مماته ﷺ خيراً لأمته، وبه انقطع الوحي وهو سبب الرحمة ومصدر الخير؟ وقد ثبت في صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ : انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما انتهيا إليها بكت. فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ ؟ فقالت: إني لا أبكي أني لا أعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها.

فنقول في الجواب: إن كون مماته ﷺ خيراً لأمته من الحيثية التي ذكرها في الحديث - عرض أعمالهم عليه واستغفاره لهم- لا يفيد أنه خير على الإطلاق، وفي الواقع أن المقصود كله بيان أن مولده ومبعثه وحياته ومماته وكله ﷺ في جميع أحواله وأطواره مصدر نعمة وينبوع بركة وخير. ثم لا يقدح في أنه ﷺ رحمة مهداة، وأن حياته ومماته خير، وما جاء به من الدين هو علاج البشرية الناجع ودواؤها النافع، وجود أمم أو أفراد لم ينتفعوا به ولم يتداووا بدواء شرعه الحكيم. وهل يقدح في صحة الدواء وثبوت منفعته نفرة بعض المرضى منه إنكاراً لصحته أو استثقالاً لتعاطيه؟ وبعد، فيؤخذ من الحديث ثبوت حياته ﷺ حياة برزخية، واطلاعه على أحوال أمته، ومزيد شفقته عليهم، وجواز الاستشفاع به واتخاذه وسيلة إلى الله تعالى، وأن من أمكنه منفعة غيره فليفعل. وأنه لا مانع من التحدث بنعمة الله لمصلحة، وأنه ﷺ مصدر الخيرات والبركات في الحياة وبعد الممات والله أعلم.

***

الهجرة درس عملي

طلبت إلينا مجلة «الإسلام» الغراء كتابة كلمة عن الهجرة النبوية لنشرها في عددها الممتاز الذي تعودت إصداره في مفتتح كل عام هجري، فرأينا أن نتقدم إليها وإلى قرائها الكرام بالكلمة الموجزة الآتية، والله تعالى ولي الهداية والتوفيق.

حادث الهجرة - كما قلناه في عدة مناسبات- درس عملي ألقاه النبي ﷺ لأمته لتستفيد منها في حياتها، وتهتدي به في ظلمات الحوادث والخطوب. درس عملي يرينا كيف يكون القيام في وجه الظالمين، وكيف تكون السياسة والحزم في الخروج من المضايق والمآزق الحرجة.

يرينا كيف يكون حب الله تعالى وحب دينه مقدمًا على حب الأوطان والأموال والأولاد؛ بل يرينا كيف يكون بذل النفس والنفيس في سبيله عز وجل، وكيف يكون الاعتماد عليه سبحانه في النصرة والتأييد. وكلما مرت الأعوام وتجددت الحوادث، وحمى وطيس الحرب بين الحق والباطل، وقف الباحثون في هذه الهجرة النبوية الشريفة على معان سامية وحكم جليلة، وأمثال عالية جديرة بالملاحظة والاعتبار، ولا غرو فأثر العظيم عظيم مثله، وفعله عليه الصلاة والسلام صادر عن ذاته الكريمة التي لا تحيط بها العقول، ولا تفقه كنه سرها الأفهام.

دع ما ادعته النصارى في نبيهم

واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

لقد خلق الله تعالى محمداً ﷺ ليحمله أعباء رسالته، ويسند إليه مهمة الدعوة إليه، ويجعله أستاذ الأساتذة ومعلم الإنسانية كلها، فمن الضروري والحالة هذه أن يجمع في ذاته الكريمة كل صفات الشرف والنبل، فيهبه من رجاحة العقل ورحابة الصدر وشجاعة القلب ورباطة الجأش وكمال المعرفة واليقين، وحسن السياسة والتدبير ما لم يهبه لغيره، ولم يمنحه لسواه، ومن الضروري كذلك أن يمثل الحق تعالى على يديه عليه الصلاة والسلام كل أدوار الحياة من قبض وبسط، وشدة ورخاء، وراحة ونعب، ويجعل هذه المدة القصيرة التي قضاها في حياته الدنيا (معرضًا) للحوادث والوقائع، وموطنًا للمواعظ والعبر. ولهذا كانت الثلاثة والعشرون عامًا- وهي كل ما عاشه بعد النبوة والوحي- كافية لأن تكون مرجعًا لدستور حافل يكفل سعادة البشر ويفي بمصالح القرون والأجيال، حتى أنزل الله تعالى عليه في أخريات حياته المباركة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣)، وفي الحديث الشريف عنه ﷺ: «ما تركت شيئًا يقربكم إلى الله تعالى إلا أمرتكم به، ولا شيئًا يبعدكم عنه إلا نهيتكم عنه» أو كما قال.

وهنا يحسن لنا أن نقول: إن كل من توهم في الشريعة الإسلامية قصوراً عن سد حاجات البشر، وكفاية مصالح العباد في الدنيا والآخرة معًا، فهو إما مكابر معاند أو غبي جاهل بحكمة البعثة والتشريع، وأجدر به أن يبتر من جسم الإنسانية بتراً بدل أن يوضع منها موضع الطبيب المعالج.

قلنا في صدر هذه الكلمة: إن حادث الهجرة النبوية درس عملي للعظة والاعتبار، ومن هذه الناحية يجب أن ينظر الباحثون لا في الهجرة

وحدها؛ بل في كل أثر وكل شأن من شئونه عليه الصلاة والسلام، فما مكن الله تعالى المشركين منه ﷺ حتى عادوه وآذوه وتآمروا على قتله، وتسببوا في إخراجه من وطنه المحبوب له إلا ليرينا كيف يكون موقفه ﷺ حتى نتأسى به في الصبر والحلم، ونتعلم كيف نتلقى الحوادث ونعالج الأمور، وكيف نخرج من الكرب والأهوال إذا ضاقت مسالكها واستحكمت حلقاتها. ويرحم الله تعالى صاحب الهمزية حيث يقول:

لا تخل جانب النبي مضامًا
حين مسته منهم الأسواء
لو يمس النضار هون من النار
لما اختير للنضار الصلاء
كل أمر ناب النبيين فالشد
ة فيه محمودة والرخاء

فليترسم الداعون إلى الله تعالى خطاه ﷺ في سياسته وحزمه، وفي معالجته للحوادث وملاقاته للخطوب، وليأنسوا به في ثقته بربه، وتفانيه في حبه وجوده في سبيل ذلك بماله وروحه، كما يأتسون به في صلاته وصومه وسائر أنواع عباداته صلوات الله وسلامه عليه.

***

حول حديث «من خاف أدلج»

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنَّ سلعة الله غالية، ألا إنَّ سلعة الله الجنة». رواه الترمذي

هذا الحديث الشريف أحد حكمه ﷺ البالغة ودرره اليتيمة، وقد ذكره الإمام النووي رضي الله عنه في باب الخوف من كتابه «رياض الصالحين». وسبق لنا شرحه في دروسنا الليلية، وكنا نود الاكتفاء بذلك خصوصًا وقد اعتذرنا إلى حضرات القراء أكثر من مرة، وطلبنا منهم إعفاءنا من موالاة الكتابة لا لسبب إلا ما نشعر به من ضعف الصحة وضيق الوقت، وعدم الأهلية لهذا المجال، ولكن رغبات الإخوان العديدة- وفيهم من لا نستطيع مصادرة رغباتهم- في كتابة نبذة عن هذا الحديث الشريف تضطرنا إلى الإدلاء بما يأتي، والله المسئول أن يضاعف لنا ثوابه فنقول:

لما علم الله أن من طبيعة النفوس البشرية - غالبًا- محبة البطالة، والإخلاد إلى الراحة، والكسل وعدم الانبعاث إلى الخير والعمل الصالح، أوجد فيها غريزة الخوف وهو عبارة عن قلق وانزعاج ينشأ عن توقع مكروه يحصل في المستقبل، ومتى اشتعلت ناره في القلب أذهبت كدراته الطبيعية، وأزالت عنه الرعونات البشرية، وقمعته عما لا ينبغي من

الشهوات وارتكاب المخالفات، وجعلته كالذهب الإبريز أو كالمرآة الصافية التي تطبع فيها صور الأشياء على ما هي عليه، فيرى الحق حقًّا فيتبعه، والباطل باطلاً فيجتنبه. فهو في رحمة من الله تعالى ومنة من منته الجسيمة. به يحفز عباده إلى المسابقة والجد، ويسوقهم إلى التشمير في طاعته والاجتهاد في عبادته حتى يصلوا إلى مقام المحبة والقُرب، فيكون تعالى سمعهم الذي به يسمعون، وبصرهم الذي به يبصرون ويدهم التي بها يبطشون، ولذلك كان الخوف من أشرف مقامات الدين وألزم آداب السالكين، وهو نتيجة اليقين، وثمرة العلم بالله تعالى كما قيل:

على قدر علم المرء يعظم قدره ... فلا عالم إلا من الله خائف

وفي التنزيل: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر: ٢٨) أي: الذين علموا صفاته تعالى، وعرفوا جلاله وجبروته، وهو القاهر فوق عباده، القابض على نواصيهم، كلهم تحت سيطرته وقهره ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وكلما ازداد القرب منه تعالى وعظمت المعرفة به، ازداد الخوف منه والخضوع لعظمته وجلاله، وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «والله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية» فمنشأ الخوف من الله تعالى هو العلم به وشهود التقصير في حقه. وأصفى ينابيع هذا العلم صحبة العلماء العاملين، والتلقي عنهم والاستماع إلى مواعظهم، ومشاهدة أعمالهم

وأحوالهم، وما هم عليه من مراقبة الحق ومحاسبة النفس، وشدة التحرز عن جميع ما كره الله قولاً وفعلاً وخاطراً وناظراً، وتوبتهم من ذلك إذا وقع منهم، واستغفارهم منه في كل حين. وقد قيل لذي النون المصري: متى يكون العبد خائفًا؟ قال: إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحتمي مخافة طول السقام.

وقال الفضيل بن عياض: من خاف الله دله الخوف على كل خير. وعن أبي سليمان: ما فارق الخوف قلبًا إلا خرب. وكان بعضهم إذا هجم عليه وهو متهيئ للدنو من أهله، احترق قلبه وذهبت شهوته، فلا يستطيع محاولة ما أراد.

ويشارك الخوف في هذا المعنى- معنى الحث على طاعة الله تعالى- الرجاء، فهما أمران لابد منهما لكل شخص؛ لأنهما كجناحي الطائر متى فقد أحدهما سقط وتعطل عن الطيران. وقد سئل الجنيد عن الطريق الموصل إلى المعارف والأسرار فأجاب: بتوبة تزيل الإصرار، وخوف يقطع التسويف، ورجاء يبعث على مسالك العمل. لكن ما يشتمل عليه الخوف من معنى الحث والتهييج على العمل لا يتوفر مثله في الرجاء. ومن هنا كان الأولى للمؤمن في حال صحته وسلامته تغليب الخوف على الرجاء؛ إذ الخوف بمثابة السوط الذي يحمل النفس على المسابقة والجد والإقبال على الله تعالى بكنه الهمة والعزم، كما قال من أوتي جوامع الكلم صلوات الله وسلامه عليه: «من خاف أدلج» قال الإمام النووي: أدلج بإسكان الدال ومعناه سار من أول الليل، والمراد: التشمير في الطاعة. اهـ. فهو إذن عبارة عن السير إلى الله تعالى سيراً معنويًا لا

سيراً حسيًّا؛ إذ لا مسافة بين العبد وربه حتى يقطعها بالمسير إليه، وهذا إنما يكون بتطهير القلب عما سواه عز وجل، وقطع عقبات الحظوظ والشهوات، ونقل النفس من أوصافها الذميمة كالكبر والحسد والرياء وسوء الظن بالمسلمين، وحب الرياسة والحرص على المال والجاه، ونحو ذلك إلى الأوصاف المحمودة من التواضع والحلم والعفة والسخاء والإخلاص لله تعالى والصدق معه في كل حال.

وقد استفيد من قوله ﷺ: «من خاف أدلج» على ما سبق عن الإمام النووي رضي الله عنه في تفسيره:

١- الدلالة على أنه ينبغي للعاقل المسارعة إلى الخير والمبادرة بالأعمال الصالحة قبل مفاجأة القواطع وهجوم الشواغل، كما بيَّن ذلك عليه الصلاة والسلام في قوله: «بادروا بالأعمال سبعًا: هل تنتظرون إلا فقراً منسيًّا أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، والساعة فالساعة أدهى وأمر» رواه الترمذي. فالعوائق منتظرة والشواغل غير مأمونة، والحازم من اغتنم الفرصة وشمر عن الساق ولم يسوف العمل، ويرحم الله تعالى من يقول:

وعد من قريب فاستجب واجتنب غدًا
وشمر عن الساق اجتهادًا بنهضة
وكن صارمًا كالوقت فالمقت في عسى
وإياك علا فهي أخطر علة
وقم في رضاها واسع غير محاول
نشاطًا ولا تخلد لعجز مفوت

وسر زمنًا وانهض كسيرًا فحظك الـ

ـبطالـــة مـــا أخرت عزمًا لصحة

وجد بسيف العـــزم ســوف فان تجد

تجد نفسًا فالنفـــس إن جدت جدت

٢- الإشـارة إلى أنه لا يتأتى الابتعـاد عن معـاصي الله تعـــالى، والهروب من مواطن الفتن، وأماكن العبث واللهو، ولا يمكن التحامي عن الشهوات وترك الأمور المشـتبهات، إلا باستشعـار الخشية من الله تعـالى والخوف من مـقته وغضـبه. فعلى النصَّاح أن يوجهوا عنايتـهم إلى تربية ذلك في القلوب، وإلا كان عملهم قليل الجدوى.

ثم كما لا يمكن للإنسان الإدلاج بالليل وقطع المفاوز والقفار الحسية من غير مرشـد ولا دليل، فكذلك لا يمكن السير إلى الله تعالى والتـقرب إليه، وتزكـية النفس من عيـوبها وأدرانها، إلا على ضـوء الكتاب والسنة وإرشاد النبي ﷺ وورثته العلماء العاملين.

ومن شرح العـلامة السمد لبردة الإمـام البوصيري: ولا تظـن أن تزكية النفس تتيسـر بطريقة العـقل كمـا ظنت الفلاسـفة والبـراهمة وغيـرهم من الجهـال، وشرعوا في تـزكية نفـوسهم بالرياضات والمجـاهدات، فوقـعوا في الآفات والشبهات والضلالات، فإن تزكية النفوس كمعالجة الأبدان، فكما لا يجوز للمريض استعمـال الدواء إلا بنظر طبيب حاذق ذي تجربة في المعالجة، كذلك تزكية النفس لا تتيسر إلا لنبي حاذق أو ولي ذي تجربة في هذا الشأن، وهذا أحد أسرار بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنهم الحذاق في تزكية النفوس، ولذلك بعثهم الله ليزكوا بعلاج الشرائع كل قنوط ويؤوس. اهـ

ثم قال ﷺ: «ومن أدلج» أي: سار إلى الله تعالى سيراً موافقًا للشرع الشريف، خاليًا من البدعة والزيغ، لا ميل فيه ولا انحراف وإلا رجع القهقرى، وكان عمله مردوداً عليه. وعن الجنيد ﷺ: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر رسول الله ﷺ. وقال أيضًا: من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدى به في هذا الأمر؛ لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

وعن سهل بن عبد الله قال: أصولنا عدة أشياء: التمسك بكتاب الله والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق، فمن سار على هذا المنهاج القويم (بلغ المنزل) منزل المحبة والقرب في الدنيا، ومنزل الكرامة والنعيم المقيم في العقبى. وهذه عادة صادقة ممن لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه بأن من جاهد نفسه وهواه، ممتثلاً للسنة غير عامل بالبدعة، صار من الواصلين ونال درجة المقربين، وأصبح من أهل العناية والحفظ، الذي لا تسلط للشيطان عليهم ﴿إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ﴾ (الحجر: ٤٢)؛ بل إذا وسوس إليهم، ومسهم منه طائف حتى أغفلهم عن ذكر ربهم، أو زيَّنَ لهم بعض الهفوات فوقعوا فيها- لكونهم غير معصومين- تداركتهم العناية في الحال، فأبصروا بعين قلوبهم قبح غفلتهم وشناعة هفوتهم، فرجعوا وتابوا، وتذكروا وأنابوا، وبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيمًا.

أما الذين ملكتهم نفوسهم وأسرتهم شهواتهم فلم يبرحوا عن مكانتهم، ولم يتجشموا متاعب السير، ولم يسلكوا سبيل المجاهدة والعمل، وإن امتلأت أشداقهم بالدعاوى كما امتلأت صحائفهم

بالمساوئ، فأولئك لا نصيب لهم إلا الحرمان ولا جزاء لهم إلا الخيبة والخذلان، نعوذ بالله تعالى من ذلك ونسأله الهداية والتوفيق.

ولما كان عليه الصلاة والسلام قد طلب المجاهدة والحث على العمل بقوله: «من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل» فقد أتبعه بقوله ﷺ: «ألا إن سلعة الله غالية»، والسلعة هي كل ما يتنفع به وجمعها «سلع» على ما في القاموس. والمراد هنا ما يشتريه الإنسان ويدفع له مقابلاً هو الثمن، والتعبير بالسلعة يشعر بأنها لا تنال عفواً، ولا تبذل بلا ثمن، والسلعة الغالية لا تنال إلا بالجهاد والكد والتعب الذي قد يصل إلى بذل النفس ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة: ١١١) فمن غرس جنى، ومن زرع حصد، ومن طلب الجنة فليمتثل المأمورات ظاهراً وباطناً ويجتنب المنهيات كذلك، كما أن مريد الجنة لابد له من المجاهدة وطرح السوى، وتخليه بقلبه عن الأكوان كلها اقتداء بمن لم يمد عينيه إلى زهرة هذه الحياة الدنيا، ولم يفتنه ما فيها من متاع ولذة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٣١).

وعن الحسن البصري رضي الله عنه: زعم أقوام على عهد رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله ، فأراد تعالى أن يجعل لقولهم تصديقاً من عمل، وعليه فمن ادعى المحبة وهو مخالف للسنة مسترسل في شهواته، يقتحم الآثام، ويرتع فيها كما ترتع الأنعام، فلاشك في أنه دعي ومفتر كذاب، ولو مشى على الماء، أو طار في الهواء. ثم بيَّن صلوات الله عليه مراده من سلعة الله تعالى بقوله: «ألا إن سلعة الله

الجنة» هي دار الثواب التي عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون ﴿ على سرر موضونة ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴿ ولحم طير مما يشتهون ﴿ وحور عين ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ﴿ إلا قيلا سلاما سلاما ﴿ (الواقعة: ١٤-٢٦).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واقرأوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴿ (السجدة: ١٧).

فنافس يبذل النفس فيها أخا الهوى

فإن قبلتها منك يا حبذا البذل

فنسأله تعالى أن يمن علينا بنيلها ويكرمنا بدخولها من غير سابقة عذاب، إنه جواد كريم.

***

الناس معادن والأرواح جنود مجندة

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف». «رواه مسلم»

اقترح علينا بعض أصحاب الفضيلة العلماء ممن اعتادوا تتبع ما يقرره الفقير في الدرس أو تنشره له المجلة أن نكتب كلمة حول هذا الحديث الشريف، فنقول بعون الله تعالى وتوفيقه:

قال صفوة الخلق وأزكاهم معدنًا على الإطلاق صلوات الله وسلامه عليه : «الناس معادن»، أي: أصول مختلفة، وأنواع متباينة، وطبقات متفاوتة، وإن كان أصلهم الأول واحدًا، وهو آدم عليه الصلاة والسلام ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ (النساء: ١)، لكنهم صاروا بعد ذلك فروعًا متباينة، ومعادن مختلفة «كمعادن الذهب والفضة» وتخصيص الذهب والفضة بالذكر في هذه الرواية؛ لأنهما المعدنان الوحيدان اللذان بهما التعامل، وعليهما يتوقف نظام الحياة، فهما

بمثابة القوتين التشريعية والتنفيذية في الأمة، عليهما يتوقف نظام شأنها ومدار حياتها، وإذا صلحتا صلحت الأمة، وإذا فسدتا فسدت الأمة، فالقوة التشريعية ومظهرها العلماء بمثابة الذهب، والتنفيذية ومظهرها الحكام بمثابة الفضة، وفي بعض الروايات الواردة في الصحيح «تجدون الناس معادن» من غير تقييد بالذهب والفضة وهي أعم وأشمل، أي: فكما أن المعادن مشتملة على أنواع كثيرة، وأصناف متباينة، وجواهر مختلفة في الجودة والرداءة، متفاضلة في منافعها والأغراض المقصودة منها، فكذلك الناس متفاضلون فيما بينهم، متفاوتون في أصولهم وطبائعهم وأخلاقهم وعقولهم واستعداداتهم ووظائفهم في الحياة تفاوتًا كبيرًا، فمنهم الرفيع، ومنهم الوضيع، ومنهم السهل، ومنهم الصعب، ومنهم القاسي، ومنهم اللين، ومنهم الثقيل، ومنهم الخفيف، ومنهم كبير العقل واسع أفق التفكير، ومنهم جامد القريحة بليد الطبع، ومنهم المستعد للفيوضات الإلهية والنفحات الربانية، ومنهم من جعل الله صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصَّعد في السماء، ومنهم من يليق للفلاحة، ومنهم من يليق للعلم، ومنهم من يليق لغير ذلك من مختلف الوظائف والصناعات، كما هو الشأن في المعادن؛ إذ منها ما يتخذ نقودًا يتعامل بها، ومنها ما يصلح للحلية كالقلائد والخواتم، ومنها ما يصنع منه الأواني، ومنها ما يصنع منه الفؤوس والمعاول، ومنها غير ذلك، وفي الحقيقة هذا التباين والاختلاف الموجود بين طبقات الناس مما هو ضروري للعمران، ونظام الحياة، ليمكن الاستعانة بكل فيما هو صالح له، ولما كان الناس بهذه المثابة اختلفت أنظار المشايخ للمريدين، وتباينت مناهجهم في التربية وأساليبهم في

التهذيب طبقًا لاختلاف معادنهم، وتفاوت عقولهم واستعداداتهم. وهذا هو السر فيما شرطوه في شيخ التربية والسلوك أن يكون له إلمام بطبائع النفوس، وعنده بصيرة نافذة ينظر بها إلى أحوال المريدين، ويعرف ما هم عليه من القابلية والاستعداد بحيث يكون كما قال صاحب العوارف: «له إشراف على البواطن يعرف كل شخص، وما يصلح له، فيعامل كلاً على حسب صلاحيته واستعداده». ثم قال: ومن العجيب أن الصحراوي يعرف الأرضين والغروس ويعلم كل غرس وأرضه، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها، حتى المرأة تعرف قطنها وما يتأتى منه من الغزل، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له.

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم، ويأمر كل شخص بما يصلح له، فمنهم من أمره بالإنفاق، ومنهم من أمره بالإمساك، ومنهم من أمره بالكسب، ومنهم من أقره على ترك الكسب كأصحاب الصفة، فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل أحد، فأما في مقام الدعوة فكان يعمم الدعوة؛ لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة، يدعو على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتوسم فيه الهداية دون غيره، اهـ. قلت: فالشيخ الكامل هو الذي ينوع العلاج للمريدين، ويعامل كل واحد بما يناسبه، فمن توسم فيه الهمة وصدق التوجه إلى الله تعالى، ولمح أهليته لمقامات الكمال والقرب، شدد عليه وراقبه، وأخذه بمراسيم الطريق وآدابها المعروفة. وأما بارد الهمة ضعيف الإرادة قليل الاستعداد، فيكفيه أن يبين له العقيدة الصحيحة، وما يلزمه من أحكام الطهارة والصلاة، وما لابد منه من النصائح العامة والإرشادات الضرورية. وقد كان في سلف هذه الطائفة من لا يقبل إلا الطراز الأول من المريدين، وهم أصحاب الهمم

والاستعدادات العالية، لكن المتأخرين منهم لما رأوا فساد الزمن، وقلة الصادقين فتحوا باب القبول على مصراعيه، ونوعوا في المعاملة كما قلنا، وكل يأخذ حظه ونصيبه، والله يختص برحمته من يشاء.

ثم اشتراط البصيرة والكشف والإشراف على الباطن في الشيخ الداعي إنما هو بالنسبة لمن يأخذ أتباعه بالمجاهدات، ويسلك بهم مسلك الرياضات على النحو المقرر عند القوم من ملازمة الخلوة والذكر والسهر والجوع، وما إلى ذلك، لئلا يغرر بأتباعه ويتسبب لهم في الهلكة والعطب، ويجرهم إلى الزندقة والضلال، وعليه يحمل قول سهل ﷺ وأمثاله: «احذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوفة الجاهلين» أما من يتصدى للإرشاد العام، فيحث الناس على التوبة ويدعوهم إلى الاستقامة، ويرشدهم إلى المقدار الذي لا ينبغي تركه من الذكر أداء لواجب النصيحة، وقيامًا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المطالب بها كل عالم مستطيع، فهذا لا يشترط فيه أكثر مما يشترط في غيره ممن لهم القيام بوظيفة الإرشاد العام. فمادام شرط الإقدام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متوفراً فيه، وهو أن يكون عالمًا بحكم ما يأمر به أو ينهى عنه، فلا يسوغ التعرض له والإنكار عليه بحال. نعم لا محيص من الإنكار على من تصدى لهذا الأمر، وهو فاقد لشرطه المذكور. كهذه الشرذمة المتمشيخة من العوام الذين لا يحسنون حتى أحكام طهارتهم، ولا يعرفون الضروري من دينهم، ولهم مع ذلك عادات قبيحة، وضلالات معروفة ﴿وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون﴾ (الشعراء: ٢٢٧). هذا هو الصواب في هذه المسألة التي احتدم فيها الجدال وكثر القيل والقال، اغتراراً بظواهر بعض

العبارات المسطرة في الكتب مع عدم التصرف في فهم معناها، ومع الغفلة عن التطور الذي حدث في الكون، والنقص الذي دخل على جميع الطوائف، والمثل يقول: ما لا يدرك كله لا يترك كله. والله تعالى يتولى هدانا أجمعين.

ولما كان الاختلاف من لوازمه التفاضل قال عليه الصلاة والسلام: «خيارهم» أي: أشراف الناس وعظماؤهم «في الجاهلية» وهي المدة التي قبل الإسلام، أي: أصحاب الأنساب المعروفة، والبيوتات العالية، ومن كانت لهم في هذه المدة خصال محمودة وسجايا فاضلة من الكرم والسخاء والنجدة والأمانة والوفاء وحفظ العهد وحماية الجار والنزيل ونحو ذلك هم «خيارهم» أي: أشرافهم وعظماؤهم «في الإسلام» بعد بعثة النبي ﷺ «إذا فقهوا» بضم القاف أي: صاروا فقهاء في الدين بأن علموا أصوله وفروعه، وعرفوا محاسنه وأسراره وما انطوت عليه أحكامه من المصالح والمنافع للمعاش والمعاد معرفة يقينية خالطت قلوبهم، واستولت على مشاعرهم، فحملتهم على اتباع الحق ولو كان مراً ثقيلاً، وترك الباطل ولو اشتهته نفوسهم ومالت إليه، هذا هو الفقه في الدين الذي يمدح صاحبه وتثبت به الخيرية عند الله تعالى. قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي: «العلم الذي هو العلم المعتبر شرعًا أعني الذي مدح الله ورسوله أهله على الإطلاق، هو العلم الباعث على العمل الذي لا يخلي صاحبه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيد لصاحبه بمقتضاه، الحامل له على قوانينه طوعًا أو كرهًا» فأفضل الناس من جمع بين الشرف في الجاهلية بالاتصاف بالسجايا الكريمة والأخلاق الفاضلة، وبين الشرف في الإسلام بأن تفقه في

الدين وعمل بمقتضى فقهه، ويليه من شرف في الإسلام بالعلم والعمل، ولم يكن شريفًا في الجاهلية، أما من حاز شرف الجاهلية وفخرها، ولم يظفر بشرف الإسلام فلا قيمة له ولا فضل، وفي الحديث: «من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه»، وعن ابن عمر ﷺ قال: «طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده فما وجد لها مناخًا في المسجد حتى نزل على أيدي الرجال، فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «ياأيها الناس قد أذهب الله عنكم عيبة الجاهلية وتعظيمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل تقي كريم على الله، والآخر فاجر شقي هين على الله، إن الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ (الحجرات: ١٣)»، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم...».

ثم بيَّن ﷺ أن في الإنسان استعدادًا للخير وقابلية للعلم، وأهلية لسلوك سبيل المجاهدة والعمل، حيث قال: «والأرواح» جمع روح، وهي قوام البدن، ومادة الحياة، تذكر وتؤنث، ومن التأنيث قول الشاعر:

يا نازع الروح من جسمي إذا قبضت

وفارج الكرب أنقذني من النار

«جنود مجندة» الجند في الأصل العسكر، ويجمع على أجناد، وجنود، كما هنا، أي: الأرواح كالجنود المجندة، أي: المهيأة المجموعة، والمعنى: إن الله تعالى خلق الأرواح مستعدة للكمال، قابلة للتهذيب، مهيأة للجهاد، ولهذا

اختص التكليف بالنوع الإنساني، والمكلف في الحقيقة هو الروح؛ بل الإنسان ليس إنسانًا إلا بروحه «فأنت بالروح لا بالجسم إنسان»، فالتكليف جهاد، والأرواح جنود مجندة «فما تعارف منها» أي: توافق في محبة الخير، واتباع الحق والدين فاتجه لغاية واحدة، واتحد في الوسيلة والمقصد «ائتلف» أي: اجتمع والتأم بحيث صار كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وحينئذ يحصل له الفوز والنصر، ويمن الله تعالى عليه بالهداية الخاصة التي كتبها للمجاهدين، كما قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ (محمد: ٧)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ (العنكبوت: ٦٩)، وهو أيضًا معنى قوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (الليل:٥-٧) أي: نعده ونهيئه لكل ما فيه راحة ويسر في دنياه وأخراه، فنذيقه حلاوة الإيمان، ونغرس محبة الخير في قلبه، ونهديه للسداد في جميع أعماله، ونجري الصالح على يديه، ونقيه من فتن الدنيا وعذاب الآخرة. «وما تناكر منها» أي: خالف الحق ونابذ الدين، وآثر الباطل واتبع خطوات الشيطان «اختلف» أي: تفرق وتشعب وأخذ كل واحد من أفراده مذهبًا وطريقًا غير طريق الآخر، فتسود الحزبية ويكثر التنازع، ويحصل الفشل، وتتحقق الخيبة والخذلان ﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ (الليل: ٨-١٠) وهي كل ما فيه عسر وشدة وبلاء عاجلاً وآجلاً. فظهر بهذا أن قوله عليه الصلاة والسلام: «والأرواح جنود مجندة» ...إلخ منصب على عالم الشهادة والأشباح لا على عالم الغيب والذر كما قيل. وخلاصة المعنى: تعارفوا لتأتلفوا ولا تناكروا فتختلفوا، فالحديث على هذا:

١- فيه حض على المجاهدة والعمل، وترغيب في المثابرة والمسارعة إلى الخيرات.

٢- وفيه إشارة إلى أن جمع القلوب وتأليفها والانتصار على الأعداء حسًّا ومعنى، والظفر بالسعادة الدنيوية والأخروية إنما يكون باتباع الحق والدين كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وقال: ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ (الأنفال: ٦٣) أي: باتباع الهدى ودين الحق، كما أن التخاصم والاختلاف والخيبة والخذلان لا تكون إلا باتباع الأهواء والانغماس في الشهوات، والركض في ميادين الباطل، والميل إلى الدنيا، والتنافس في حطامها الفاني. وفي هذا يقول ابن خلدون في مقدمته: "وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق وأقبلت على الله اتحدت وجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف وحصل التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة.

٣- كما أن فيه الإشارة إلى حكمة الله تعالى في الأسباب، وبيان أن نيل المطالب مترتب على حسن المساعي فمن جد وجد، ومن اجتهد فاز، ومن سار وصل.

ومن رام الوصال بغير كد

أضاع العمر في طلب المحال

فالأمم الإسلامية إذن لا سبيل لها إلى السعادة والعز ونيل الكرامة والاستقلال الحقيقي، والفوز بسعادة الدارين إلا إذا تعارفت باتباع شرع الله تعالى، والتمسك بالخطة التي رسمها الحكيم العليم، حتى تتحد وتأتلف وتصير كتلة واحدة، وجبهة قوية أمام الأعداء، وتسميته ﷺ اتباع الشرع الشريف، والسير على منهاجه القويم (تعارفا) مع أنه سبب التعارف من قبيل المبالغة، كما سمى الله تعالى المطر رزقًا في قوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ (الذاريات: ٢٢) يعني المطر، وهو سبب الرزق لا نفس الرزق، وكما ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ (المائدة: ٩٧) أي: انتعاشًا لهم، وانتظامًا لأمرهم، وصلاحًا لدينهم ودنياهم، مع أنها سبب لذلك.

هذا وحمل قوله ﷺ: «والأرواح جنود مجندة»...إلخ، على هذا المعنى الذي قررناه هو الأولى والأنسب بمقام الحث على المثابرة والعمل، وطلب التفقه في الدين الذي يقتضيه قوله عليه الصلاة والسلام: «خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»، وللعلماء في ذلك تأويلات ومحامل أخرى، ولكلٍّ وجهة هو موليها، ومثل هذا مما تختلف فيه الأنظار، ويتفاوت الاستظهار، والله تعالى أعلم بمراد نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

***

ليس ذلك من الأكاذيب والأباطيل
وإنما هو الحق الصريح، والحكم الصحيح

وردت إلينا ما يلي:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (وبعد) فقد سأل أحد المسيحيين عالمًا كبيراً في مسألة هذا نصها: (إنكم تزعمون أن الله تعالى لم يخلق شيئًا إلا كرامة لمحمد ﷺ، إجلالاً له، فتقولون لولاه لم تخلق أرض ولا سماء ولا عرش ولا كرسي ولا جنة ولا نار...إلخ) فما كان جوابه - سامحه الله- إلا أن قال: إن هذا من الأكاذيب والأباطيل التي دسها بعض من ابتلي بهم الدين من المبالغين والمغالين، في حين أنني رأيت في شفا القاضي عياض على شارحه الإمام الشهاب الخفاجي ج٢ ص٢٢٤ و٢٢٥ (حكى أبو محمد مكي وأبو الليث السمرقندي أن آدم عليه الصلاة والسلام عند معصيته قال: «اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي- ويروى- وتقبل توبتي. فقال الله تعالى: من أين عرفت محمداً؟ فقال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوبًا: لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فعلمت أنه أكرم خلقك عليك. فتاب الله عليه وغفر له»). وفي رواية أخرى للإمام القدوة أبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادي مصنف كتاب الشريعة وشيخ أبي نعيم (فقال آدم عليه الصلاة والسلام: لما خلقتني ورفعت رأسي إلى عرشك، فإذا فيه مكتوب: لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدراً عندك ممن جعلت

اسمه مع اسمك. فأوحى الله إليه: وعزتي وجلالي إنه لآخر النبيين من ذريتك ولولاه ما خلقتك».. انتهى كلام المصنف. وقال الشهاب الخفاجي: (فروحه ﷺ مخلوقة قبل الأرواح، والأنبياء كلهم خلقوا لأجله، ووجوده سبب لوجودهم. فهو أب معنوي لهم وكلهم أتباعه في الوجود). وفي السيرة النبوية ج١ ص٦ للسيد أحمد المشهور بدحلان (وروى أبو الشيخ والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا- «أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام: آمن بمحمد ﷺ، ومُرّ أمتك أن يؤمنوا به، فلولا محمد ما خلقت آدم ولا الجنة والنار، وقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ فسكن» - صححه الحاكم- وروى الديلمي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «أتاني جبريل فقال: إن الله تعالى يقول: لولاك ما خلقت الجنة، ولولاك ما خلقت النار». وروى ابن سبع عن عليٍّ رضي الله عنه : «إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : من أجلك أسطح البطحاء، وأموج الموج، وأرفع السماء، وأجعل الثواب والعقاب». قال العلامة الزرقاني: وهذا ليس لغيره من نبي ولا ملك. وفي شرح المواهب للزرقاني ج١ ص٤٥ تعقيبًا على الأحاديث الدالة على ذلك- فإن قلت مذهب أهل السنّة أن أفعال الله تعالى ليست معللة بالأغراض، فكيف تكون خلقة محمد علة في خلق آدم عليهما الصلاة والسلام؟ أجيب بأن الظاهر من الأدلة تعليل بعض أفعال الله تعالى بالحكم والمصالح التي هي غايات ومنافع لأفعاله تعالى لا بواعث على إقدامه، أي: أسباب حاملة على الفعل لا علل مقتضية لفاعليته؛ لأن ذلك محال في حقه تعالى لما فيه استكماله بغيره، وهو محال، والنصوص

شاهدة بذلك، أي: بتعليل بعض الأفعال بالحكم والمصالح كقوله: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ (الذاريات: ٥٦) أي: خلقتهم وفرضت عليهم العبادة، ولا ينافيه أن كثيراً لا يعبدون؛ لأنها عام خص بمؤمنيهم، فالتعليل لفظي لا حقيقي، وحاصله تسليم كونها لا تعلل بالمعنى السابق، وما وقع من صورة تعليل ليس المراد به ذلك؛ لأن الله تعالى مستغن عن المنافع، فلا يكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولا إلى غيره؛ لأن الله تعالى قادر على إيصال المنفعة إلى الغير من غير واسطة العمل.

هذا ما رأيته ياصاحب الفضيلة، فالأمل التكرم بالفضل في هذا الموضوع على صفحات مجلة الإسلام، وختامًا جعلكم الله مأمنًا للموحدين، ويقينًا للشاكين، وكهفًا للمؤمنين.

الجواب:

الحمد لله رب العالمين وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا ومولانا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وآلهم وصحبهم أجمعين، وبعد، فقد وردت إلينا هذه الكلمة القيمة من حضرة كاتبها يطلب منا أن نفصل في موضوعها على صفحات مجلة الإسلام الغراء مع أن حضرته قد وفى في الموضوع حقه وكتب ما فيه الكفاية، ولكن تلبية لطلبه ومجاراة لحسن ظنه، ندلي بالكلمة الموجزة الآتية، ومن الله تعالى نستمد المعونة والتوفيق فنقول:

الذي نعتقده وندين الله تعالى عليه أن سيدنا محمداً ﷺ هو أفضل المخلوقات وأكرم الموجودات، قد اختصه الله تعالى بخصائص كثيرة ومزايا شهيرة، منها خلق نوره قبل الأشياء كلها من محض فيضه عز وجل بلا واسطة مادة من المواد ولا سبب من الأسباب، ومنها تشريف

روحه الطاهرة بشرف النبوة في عالم الأرواح، وتقديم أخذ الميثاق له على النبيين ليؤمنن به ولينصرنه. وخلق آدم عليه السلام وجميع المخلوقات لأجله، ومنها كتابه اسمه الشريف على ساق العرش، وذكره في الملكوت الأعلى فهو صفوة الخلق على الإطلاق، وإنسان عين الوجود كله، لولاه لم يخلق شيء، وقبل وجوده حقيقته النورانية لم يوجد شيء بدليل هذه الأحاديث الشريفة التي ساقها حضرة الأستاذ الكاتب وغيرها كثير. منها حديث سلمان ﷺ عن ابن عساكر. قال: هبط جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فقال: «إن ربك يقول لك: إن كنت اتخذت إبراهيم خليلاً فقد اتخذتك حبيبًا، وما خلقت خلقًا أكرم عليّ منك، ولقد خلقت الدنيا وأهلها لأعرفهم كرامتك ومنزلتك عندي، ولولاك ما خلقت الدنيا». ذكره الإمام القسطلاني في كتاب المواهب، والعلامة الشيخ محمد المهدي الفاسي في شرح دلائل الخيرات وغيرهما. ومنها حديث الديلمي عن ابن عباس ﷺ رفعه إلى النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله نوري، ومن نوري خلق كل شيء» أورده العلامة الفاسي في شرحه المذكور. ومنها حديث جابر ﷺ الذي رواه البيهقي وعبد الرزاق قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى فقال: «هو نور نبيك ياجابر، خلقه الله ثم خلق منه كل خير، وخلق بعده كل شر» وهو بطوله في المواهب وغيرها. وعن عمر بن الخطاب ﷺ مرفوعًا إلى النبي ﷺ قال: «ياعمر بن الخطاب، أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله -عزَّ وجلَّ- أول كل شيء نوري، فسجد لله فبقي في سجوده سبعمائة عام، فأول شيء سجد لله نوري ولا فخر - أي: لا أقول ذلك فخرًا؛ بل بيانًا للأمة وتقريرًا

للواقع- ياعمر أتدري من أنا؟ أنا الذي خلق الله العرش من نوري، والكرسي من نوري، واللوح والقلم من نوري، والشمس والقمر من نوري، ونور الأبصار من نوري، والعقل الذي في رءوس الخلق من نوري، ونور المعرفة في قلوب المؤمنين من نوري، ولا فخر». كذا ذكره بعض المحققين. وروى ابن سعد عن قتادة مرسلاً أن النبي ﷺ قال: «كنت أول الناس في الخلق، وآخرهم في البعث». أورده الحافظ السيوطي في جامعه الصغير. وفي حديث ابن القطان كما في المواهب وغيرها أن النبي ﷺ قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام». وروى البيهقي والإمام أحمد والحاكم وقال: صحيح الإسناد، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إني عند الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته». وفي رواية أخرى: «يارسول الله، متى وجبت لك النبوة؟ قال: وآدم بين الروح والجسد». وفي أواخر كتاب الخصائص الكبرى للحافظ السيوطي رضي الله عنه قال: باب اختصاصه ﷺ بأنه أول النبيين خلقًا وتقدم نبوته، فكان نبيًا وآدم منجدل في طينته، وتقدم أخذ الميثاق، وأنه أول من قال: بلى يوم ألست بربكم، وخلق آدم وجميع المخلوقات لأجله، وكتابة اسمه الشريف على العرش والسماوات والجنان وسائر ما في الملكوت، وذكر الملائكة له في كل ساعة، وذكر اسمه في الأذان في عهد آدم وفي الملكوت الأعلى، وأخذ الميثاق على النبيين آدم فمن بعده أن يؤمنوا به وينصروه، إلى أن عَدَّد رضي الله عنه نحو أربعين خصيصة له ﷺ، ثم قال: فهذه نحو أربعين خصيصة تقدمت أحاديثها في الأبواب السابقة.

فعلى أساس هذه الأحاديث الشريفة كلها - ولا يضرنا عدم ذكر أسانيدها- بل لا يضرنا ألا نذكر نصوصها أصلاً مادام أمثال البيهقي والحاكم والسيوطي والقسطلاني قد ارتضوها، وأشاروا إليها في مصنفاتهم- وهم أئمة هذا الشأن - قد بينا اعتقادنا بأن سيدنا محمداً ﷺ أكرم خلق الله ، وأول خلق الله- باعتبار حقيقته النورانية- ولولاه ما وجد شيء من خلق الله ، فمن ينازعنا في ذلك، إما ينازع في دلالتها على هذا المقصود وما نظن عاقلاً يستطيع التصريح بهذا، وإما أن يتهم مخرجيها ومثبتيها في كتبهم بالكذب والاختلاف، وهذا ما لا سبيل إليه؛ لأنهم من كبار المحدثين وأعيان المحققين، فضلاً عن كونهم من الأولياء العارفين ذوي المشاهدات الصحيحة والمكاشفات الصريحة، وإما أن يختلج في صدره ما هو أدهى وأمر، فيتهم الرسول المعصوم ﷺ بأنه حابى نفسه بمثل هذه الأحاديث افتراء على الله تعالى، وهذا هو الكفر الصريح والضلال القبيح نعوذ بالله من ذلك.

إذن فالقول : بأنه لولا محمد ﷺ ما خلق الله الأرض ولا السماء...إلخ، ليس من الأكاذيب ولا من الأباطيل، وإنما هو الحق الثابت بالحجج الناصعة والأدلة الساطعة، وليس في هذا القول كما يتوهم القاصرون ما يؤخذ منه أننا نرفع نبينا ﷺ عن مقام العبودية، أو نعطيه شيئًا من خصائص الألوهية. كلا: فإننا مع قولنا بذلك نعتقد أنه ﷺ عبد مربوب وحادث مخلوق، لوجوده ابتداءً ولحياته انتهاء، لا يملك بذاته لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا، وليست مناقبه وكمالاته العظيمة ذاتية له، وإنما هي عطايا إلهية ومنح ربانية أفاضها عليه خالق الأكوان ومفيض الجود والإحسان.

ونحن معشر الأمة المحمدية أبعد الأمم عن الغلو في الدين والتعصب لنبيهم ﷺ بالباطل؛ لأن ديننا القويم قد ذم التعصب وأنحى باللائمة على الغالين في الدين، قال تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم﴾ (النساء: ١٧١) في الحديث: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»، وقد كان ﷺ سيد المنصفين وأكمل المتواضعين، وقد قال: إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبيد، وآكل كما يأكل العبيد»، وقد قال لامرأة خافت منه وارتعدت: «إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

ونحن لا نصفه ﷺ بشيء من صفات الألوهية كما فعلت النصارى بعيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، ولكن نقول في شأنه إنه عبد الله ورسوله، وفي البردة للعارف البوصيري:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم

واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف

وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له

حد فيعرب عنه ناطق بفم

هذا، ولا يتنافى عند من فتح الله تعالى بصيرته بين كونه ﷺ أول الموجودات، وأنه لولاه ما خلق الله تعالى آدم عليه السلام، ولا الجنة ولا النار...إلخ، وبين ما هو معلوم بالضرورة من تأخر وجوده عليه الصلاة

والسلام عن وجود آدم؛ بل عن وجود سائر الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وذلك لأن المراد بأوليته ﷺ على الكل تقدم حقيقته النورانية لا تقدم صورته الظاهرة وهيكله الشريف المركب من الجسد والروح، فإنه بهذا الاعتبار متأخر الوجود عن آدم، وعن جميع الأنبياء. فظهر أن له ﷺ وجودين: وجوداً سابقًا وهو وجود نوره قبل الأشياء كلها، ووجوداً لاحقًا هو وجوده الخارجي الظاهري، وهذا لمزيد العناية به عليه الصلاة والسلام ولبيان أنه الحبيب الأكرم.

هذا كله هو ما اعتقدناه تبعًا للأدلة الواردة ولا يضرنا إنكار المنكرين ولا تبجح المستهزئين.

ما ضر شمس الضحى في الأرض طالعة

أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

***